عبد الناصر
وذو القناع
الجلدي

محمد الهادي

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة ل

www.nashiri.net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب

نشر إلكترونيا في يناير 2004

المحتويات

- مقدمة
- 1 ـ عبد الحكيم قاسم (قصة لم تكتمل)
- 2 ـ عبد الناصر وذو القناع الجلدي
- 3 ـ العربي الغريب في " الغريب "
- 4 ـ يوسف إدريس :
- أ ـ التحول في قصتين ليوسف إدريس وكافكا
- ب ـ ما الذي يتبقى من يوسف إدريس ؟
- 5 ـ قراءة في رواية " الهماميل "
- 6 ـ تراث :
- أ ـ حديث عيسى بن هشام
- ب ـ التوحيدي شاهد علي العصر
- 7 ـ مواضع التماس بين عالمين: (قراءة في رواية " عائشة الخياطة" لصلاح والي)
- 8 ـ الإرهاب والشعر .
- 9 ـ الرؤية السياسية عند نجيب محفوظ
- 10 ـ قراءة في رواية " قلعة الجبل " لمحمد جبريل
- 11 ـ نبيه سرحان (خيانة أم ضعف انتماء أم جنون ؟)
- 12 ـ أدب ونقد تطفىء 200 شمعة
- 13 ـ الهم السياسي في رواية الحب في المنفى لبهاء طاهر
- 14 ـ أوريانا فالاتشي
- الثورة
- 15 ـ الرواية العربية وقضايا الوطن
- 16 ـ خيري شلبي: سارق الفرح يفرح أخيراً
- 17 ـ أليفة رفعت: الجنس والموت في حياة المرأة العربية
- 18 ـ قراءة في رواية " حكاية شوق " للأديب أحمد الشيخ
- 19 ـ لن أقلع عن هذه العادة
- 20 ـ وقائع موت حمدي سرحان
- 21 ـ رياح " صبري قنديل " الانشطارية
- 22 ـ نوبل للقتل
- 23 ـ ثروت أباظة
- السيرة الذاتية للكاتب

مقدمة

هذه مجموعة من المقالات الأدبية التي تعني بالشأن الأدبي علي كافة وجوهه ، كتبتها ونشرتها علي فترات زمنية متفاوتة في الصحف والمجلات والدوريات الأدبية والمواقع الإلكترونية ، مدفوعاً بالرغبة في كتابتها بين محطات إبداعي الأدبي في القصة والرواية أساساً ، وآمل من نشرها مجمعة في كتاب أن تكون ذات فائدة لمن يطلع عليها ، ففي الوقت التي تتناول فيه ـ هذه المقالات ـ كبار مبدعينا من الأدباء كنجيب محفوظ ويوسف أدريس وغيرهما ، فإنها تتناول أدباء آخرين أقل شهرة ، كما أنها لا تكتفي بالشأن الأدبي العربي فقط ، ولكنها تذهب أيضاً للشأن الأدبي العالمي .

محمد عبد الله الهادي

عبد الحكيم قاسـم
[قصة لم تكتمل]

(وكنت أخاله دوماً كخفير غير نظامي للقرية ، خفير : سلاح قلمه وقلمه سلاحه ، تدب قدماه ـ ليل .. نهار ـ أرض الحارات والباحات والدور والمصاطب والغيطان والأسواق والموالد ، فيكتب بعشق نادر ـ يقرب لحد الهوس ـ عن الناس والأرض . إنه " عبد الحكيم قاسم " ، الذي بدا لي أحياناً كقروي ساذج ، حسن الظن بالقادرين علي الفعل ، فيسطر لهم العرائض والشكاوى ، لكن قريته ، محبوبته ، كانت تنتهك منه بعنف وبلا هوادة ، وتتخلى عن عهد البراءة والصبا الأول ، وفي تلك الفترة التي سرقته منها المدن ، كانت قريته تتعرى وتلطخ وجهها بالأصباغ ، لكنه ظلَّ مخلصاً لها ، قادراً علي فعل الكتابة ، وعندما داهمه المرض اللعين لم يتوقف ، وإن فقدت كلماته فرحة الاكتشاف الأول ولذته المستحيلة ، كان تائهاً ما بين ميادين المدن وشوارعها الوحشية ويتعمد الفرار ، لأنه كان يراها علي البعد قرية مستباحة ..
فوداعاً " عبد الحكيم " ، لقد انتهى رصيدك من أيام الدنيا ، ما بين يناير 1935 م ونوفمبر 1990 م وبدأت أيامك الأولى في الآخرة ، فاحك لنا ـ بحق الله ـ طرفاً من طرف الآخرة .. وهانحن نسمع بآذان مصغية)

كنت قد كتبت هذه الكلمات في رثائه تحت عنوان " العاشق الذي رحل "(1) بعد رحيله المفاجئ صبيحة الثلاثاء 13 نوفمبر 1990 م في محاولة لقهر الحزن ، ذلك الحزن الذي خيم علي نفس كل من قرأ إبداع " قاسم " وعرف قدره .
ولد " عبد الحكيم قاسم " في أول يناير 1935 م في قرية " البندرة " مركز " السنطة " بمحافظة الغربية ، لكنه كان يعتقد أنه وُلد قبل هذا التاريخ بحوالي عام ، وأنه لم يسجل في دفتر المواليد في حينه علي عادة أهل القرى ، وفي كلية الحقوق التي حصل منها علي الليسانس عام 1946 م كتب أول قصة له بعنوان " العصا الصغيرة " عام 1957 م واشترك بها في مسابقة نادي القصة ولكنها رفضت ، لكن مشروعه الإبداعي الحقيقي بدأ برواية " أيام الإنسان السبعة " مروراً فيما بعد بأعماله الآتية : محاولة للخروج ـ قدر الغرف المقبضة ـ سطور من دفتر الأحوال ـ الأخت لأب ـ المهدي ـ الأشواق والأسى ـ طرف من خبر الآخرة ـ الظنون والرؤى ـ الهجرة إلي غير المألوف ـ ديوان الملحقات . ومسرحيته الوحيدة " ليل وفانوس ورجال " ، بالإضافة لأعماله التي مازالت مخطوطة أو نُشر بعض فصولها مثل رواية " عن كفر سيدي سليم " و " غريبان في الإسكندرية " وكتاب " مقهى وأحاديث " وبعض القصص القصيرة وغيرها ،

وشاء القدر برحيله المفاجئ ألاَّ يكتمل هذا المشروع ، فبدت حياته التي امتزجت في قصصه كحكاية سطر بدايتها ولم يقدر لها أن تمضي في طريقها للنهاية .

* * *

يقول " عبد الحكيم قاسم " في إهدائه لقصته " المهدي " :
" ابنتي إيزيس .. ابني أمير .. أرجو أن تعيشا مصراً أحسن من تلك التي عاشها أبوكما وأن تذكراني " .
وإذا تأملنا الحياة القصيرة التي عاشها " قاسم " سنجدها مفعمة بإبداع عظيم له تميزه الخاص ، لقد ظل قارئ " عبد الحكيم " مع كل عمل جديد ينشر له ينتابه شعور بأنه لم يقل كل ما عنده ، وأن جعبة هذا المبدع ما زالت تخبئ الكثير ، تحالف المرض الذي داهمه في أخريات حياته مع ظروف حياتية لم تكن ميسرة في كثير من الأحيان .. تحالفا ضده ، ووقفا حائلاً دون رغبته في البوح بكل ما لديه .
عندما عاد من ألمانيا بعد عشر سنوات قضاها هناك ، سأله الأديب " فؤاد حجازي " عن طموحاته في المستقبل فقال : " أن أبني داراً في بلدنا المندرة .. داراً قدامها مصطبة وجميزة وزير .. وأن يكون في داري شاي وسكر لضيوفي .. وشباك بحري أجلس قبالته وأكتب " (2) ، وأظنه كان صادقاً كل الصدق في رغبته هذه ، رغبة الفلاح القراري في العودة لجذوره وأصوله ، لقد تشتت جهده ما بين أطروحته عن جيل الستينيات ، وما يتطلبه هذا العمل الأكاديمي من جهد وبحث وما بين قدرته علي الإبداع والتفرغ له ، وظل السؤال المحير : لماذا يتفرغ مبدع مثله ، وطوال هذه المدة لدراسة هذا الأمر؟! ، دراسة يمكن أن يتكفل بها آخرون ، وهنا في مصر ، وربما بصورة أفضل .. هل هي " محاولة للخروج " ـ وهانحن نستعير عنوان روايته ـ تلك المحاولة التي فعلها آخرون من قبل ؟ ، هؤلاء الكتَّاب الذين تاقت نفوسهم للهجرة صوب الشمال حيث حضارة الغرب بكل ما تعني ؟ .
كتابات عبد الحكيم قاسم تدور حول محور القرية : قريته " البندرة " التي كتبها بخصوصية شديدة في المذاق والطعم والنكهة إذا جاز لنا هذا التعبير ، ومن خلال إبداع عام لجيل الستينيات المتميز ، الذي تخصص بعض أفراد كتيبته في تناول القرية المصرية ، كتب قريته بتنوع وثراء ، وظلَّ له ـ بينهم ـ صوته الخاص كماركة مسجلة تقترن باسمه ، صوت ملم بدقائق أمور القرية وأطوارها وحيواتها المختلفة ، وربما تأتى له ذلك لكونه يكتب بحب نادر عمن عرفهم من أهله وناسه . وكان عبد الحكيم أيضاً ـ في كل أعماله ـ مولعاً باللغة التي كان ينحت منها جملاً رصينة وجميلة في آن ، كلمات ينتقيها من المعجم تبدو عامية ولكنها فصيحة . ولكنه كان حريصاً في الوقت نفسه ألاَّ يسمح لجماليات اللغة التي عشقها أن تسطو منه علي المضمون فتهمشه أو ترهله أو تنفيه أو تبعده عن موقعه الذي يريده له وهو موقع القص ، ولم يلجأ للغموض أو الرمز ، ولم تغره محاولات التجديد التي من شأنها أن تفصم عُرى التزاوج الشرعي ما بين الشكل والمضمون .

كان المرض قد نال منه كما ذكرنا ، وعندما أفاق قليلاً من وطأته واستطاع العودة لقلمه ، كتب عدَّة قصص متفرقة ، نشر بعضها في مجلة الهلال ، قصص قصيرة ربما لا تزيد الواحدة منها عن صفحة أو صفحتين ، بدا من خلالها وكأنه يحاول باستماتة الإمساك بأشياء تفر منه رغم أنفه ، وكأنما كان يبكي أسى علي أشيائه الحميمة التي تنتزع منه بلا هوادة ، وقد جُمعت هذه القصص فيما بعد في مجموعته " ديوان الملحقات " .

كانت القرية التقليدية القديمة ، قرية الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات تتغير ، لم تعد أليفة كما كانت ، صدمة التغيير التي اصطدم بها كل الكتَّاب ذوي الأصول الريفية ومنهم عبد الحكيم ، حتى أن واحداً منهم هو صديقه " سعيد الكفراوي" قال ذات مرَّة : " إن القرية التي نكتب عنها لم تعد موجودة .. إننا فاشلون " .

* * *

لم يأخذ" عبد الحكيم قاسم " حقه من التكريم في حياته ، وأعتقد أن الأدب لم يجلب له سوى المتاعب ، ولم يوفر له حياة لائقة كان يستحقها هو وأبناء جيله ، يقول ساخراً في لقاء معه : " أنا حتى الآن كل ما حصلت عليه من أجر الكتابة لا يساوي ثمن حذاء ومديون في ألمانيا " ، كان يكتب في أخريات أيامه زاوية أسبوعية بعنوان " قراءات ومشاهدات " في صحيفة الشعب لسان حال حزب العمل ، وكتب فيما يكتب عن أبناء جيله ، جيل الستينيات ،كتب موضوعات أثارت البعض وألبت عليه مشاعر الآخرين ، لكنني أعتقد أنه لم يكن يرمي إلي ما يقوله صراحة ، بقدر ما كان يلقي بأحجاره في البحيرة الراكدة في البحيرة الراكدة علها تنشر دوامات من الجدل والنقاش، يقول : " أمَّا عن جيل الستينيات فقد كنت متحمساً جداً لهذا الجيل ، وكتبت عنهم بحماس شديد ، لكني بدأت في الفترة الأخيرة أسخط علي هذا الجيل وأريد أن أهاجمهم ، وأنني أرى بعد قراءة مدققة كثيراً من الفشل الرهيب في أعمالهم وأود أن أكشف هذا الفشل للناس "(3) ، وقال في مرَّة أخرى : " أدباء الستينيات خزنوا الأدب في بلاليص الجبن القديم ووضعوه علي سطح قهوة ريش وحولوه لشيء قميء جداً "(4) ، وقال أيضاً : " أتساءل لمن يكتب هؤلاء ؟ ، إنهم يشربون البيرة طوال الليل وينامون طوال النهار ، إنهم منعزلون عن الحياة والمجتمع ، عليهم أن يبتعدوا عن القاهرة وأن يعيشوا في العزب والكفور ، وأن يتفرجوا علي الناس وأن يعايشوهم "(5) .

وعلي جانب آخر ربما أوحتْ له أطروحته التي كان يعدها في ألمانيا ببعض الآراء عن أدباء الستينيات وإنتاجهم وموقفهم من السلطة ، كان قد تقدم بها لمعهد الدراسات الإسلامية في برلين الغربية ، وعن تفسيره لموقف أدباء الستينيات من السلطة يقول : " لا أقصد طبعاً الموقف الفعلي المادي ولكن الموقف حينما يتحول الأدب إلي محتوى للأفكار السياسية التي لا يمكن أن تقال بأسلوب آخر ، ويظهر هذا الموقف من خلال الأدب علي أكثر من مستوى ، مثلاً حينما كانت لغة الثورة في هذا الوقت دعائية ورنَّانة كان أدباء الستينيات يكتبون ويستعملون لغة رصينة بعيدة عن المبالغة ، وفي الوقت التي كانت الثورة تتحدث عن الانتصارات كان الكتَّاب يتناولون الأشياء بشكل واقعي مجرد وبسيط ، أيضاً أدباء الستينيات لم

يتحدثوا عن الجوع لأنه لم يكن هناك جوع حقيقي ، الثورة قدمت شخصية المتفائل ، حتى المعارضة لها لك تكن صارخة ومجلجلة ، ولكنها تأخذ صورة الجدل مع شخصية الأب ، شخصية عبد الناصر ، ولذلك نجد شخصية الأب هي المفتاح في أدب الستينيات وعند أدبائها "(6) . ولم يتمكن عبد الحكيم كما ذكرنا من إتمام رسالته ، وعاد إلي مصر بمبرر غير مقنع :
" لقد قطعت شوطاً طويلاً في هذه الرسالة ، وكنت موشكاً علي الانتهاء منها ، لكني فوجئت بابنتي تقول : إمَّا أن أذهب الآن إلي مصر وإمَّا لن أكون مصرية بعد اليوم فقد بدأت أحب ألمانيا "(7) .

* * *

كان قد بدأ يطرق أبواب النشر ، فنشر قصته الأولى " الصندوق" في الآداب البيروتية عام 1964 م ، لكن روايته الأولى " أيام الإنسان السبعة " (8) والتي نُشرت عام 1968 م كانت عملاً مميزاً وفريداً في أدبنا العربي ، قال عنها صلاح عبد الصبور عندما قرأها : " أحسن كتاب قرأته في الخمس سنوات الماضية " ، وقال عنها " عبد المحسن طه بدر " : " إنها رواية تقدم لنا في جملتها رؤية متكاملة للقرية المصرية ، رؤية يلتحم فيها الذات والموضوع " . هذا ويعتقد عبد الحكيم قاسم أن شهرة هذه الرواية ترجع إلي حظها في أنها أولى رواياته التي نُشرت ، وأنه لو نُشرت له أية رواية أخرى مثل " محاولة للخروج " أو" قدر الغرف المقبضة " لكان قد تحقق لها نفس الشيء ، لقد كتبتها بحب شديد لشخوصها من الريف ، وقد عبرت بصدق عن هموم الفلاَّح ، ولقد ظلَّت شهرتها مع هذا تؤرقه ككاتب ، فهو يقول في موضع آخر : " أنا كتبت غيرها وأكتب غيرها وسأكتب غيرها ، فأنا في سباق مع أيام الإنسان السبعة حتى أكتب رواية تهزمها " . تنسج الرواية قصة الزيارة السنوية التي تقوم بها قريته لضريح سيدي أحمد البدوي في طنطا ، وتتناول عالم هذه القرية بكل دقائقه وتفاصيله وأسراره من خلال رؤية عميقة ، ورغم احتفال الرواية بهذه التفاصيل التي تبدو تقريرية تدنو من أرض الواقع ، إلاَّ أنها واقعية ذات نسيج خاص يتطلبه العمل الفني الذي كُتب بطريقة غنائية أقرب إلي الوجد ، يحوم حول الواقع ويعود إليه بقدر ما يتطلب العمل ، يقول عبد الحكيم : " كتبت رواية أيام الإنسان السبعة في السجن .. ثم كتبتها بعد ذلك ثلاث مرَّات حتى خرجت بالشكل الذي نُشرت به في عام 1968م "(9)

* * *

أمَّا روايته " محاولة للخروج " (10) يشير غلافها في محاولة للتعريف بها أنها محاولة للخروج من الوطن تنتهي بمزيد من الدخول فيه . الرواية هي محاولة للتعرف علي الآخر القادم من الغرب : الفتاة السويسرية " إلزبث " التي قدمت لزيارة مصر مع فوج سياحي ، وتنشأ العلاقة ، تلك العلاقة التي عزف علي وترها من قبل آخرون : الطهطاوي وطه حسين وتوفيق الحكيم وإدريس وحقي والطيب صالح وغيرهم ، وفي مواجهة الآخر يعري عبد الحكيم قاسم مظاهر القبح

والدمامة والرثاثة والفقر في الوطن ، يتحدث ـ مثلاً ـ عن صف الغرف علي السطح تحت الشمس حيث يقيم بطل القصة ، يتحدث عن البيوت الفقيرة : " كم هي فقيرة وقذرة هذه البيوت ، هؤلاء الناس الذين يحدقون أعين متسعة تقتحم خصوصية الآخرين : سائق التاكسي وصبي المراكبي وموظف البرج ، إنه لا يتوقف كثيراً أمام مشاهد الحضارة المصرية القديمة ، وما تمثله من عظمة تستدعي وجود الآخر وانبهاره ، هو يتناولها بلغة حيادية وصفية كأنما الحاضر لديه منقطع الصلة بالماضي ، وهاهي حيواته وتجاربه وذكرياته وقريته وأسرته والأب والأصدقاء من الدراويش وناس المدينة ، هاهو يستدعيهم في خطوط تتوازى أو تتقاطع وتقفز كل حين أثناء تجواله وصحبته لـ " إلزبث " .
هل الرواية تجدد العزف علي وتر التلاقي بين حضارتين : حضارة آنية وفتية ومسيطرة وقادرة في مواجهة أخرى تسترجع صورها من التاريخ ؟ ، الأمر لا يبدو هكذا برمته ، تسأله " إلزبث " : " لماذا تبقى في هذا البلد ؟ " ، ويجيبها : " إنها بلدي يا إلزبث " .
وتظل النظرة الروائية للآخر في العمل محيرة ، فلا الفقر قرين التعاسة في معظم الأحوال ، هاهو يصحب " إلزبث " إلي قريته ومجتمعه الذي ينشد البساطة الأثرة ، يرى سعادته في تلك الأشياء البسيطة : الترع والمساقي والخضرة وبيوت الطين وأكوام القش وقعدات السهر وشاي العصاري وارتياد المساجد ومجامعة الزوجات ومجاملات الأهل .
تلك الحياة الثرية بالتفاصيل المحببة والمرهقة لنفس الراوي في آن ، لا يعادلها لديه أية صورة من حياة أخرى مترفة بالمدينة بالنسبة لفلاَّح قراري ، ربما هو التطلع والتشوف لآفاق أفضل لبني جلدته .

* * *

" مازالت كلمات أبيه تعاوده بين آن وآن :
هذه الدار ريحها ثقيل .. " .

هكذا يقول " عبد العزيز " في رواية " قدر الغرف المقبضة " (11) في بداية روايته عن الغرف التي تلازمه كالقدر مع نمو وتوالي سنوات عمره ، تقبض علي روحه وتكبل جسده وهو مازال طفلاً في القرية ، ثم وهو ينتقل للمدن الصغيرة أو الكبيرة : ميت غمر وطنطا والإسكندرية والقاهرة وبرلين ، عشرات الأماكن الملآنة بالتفاصيل التي تبرز القبح والتشوه والروائح الكريهة ، تتشوه حياة الناس وتعذب أبدانهم في سعيها الطبيعي لإشباع حاجاتها الفسيولوجية ، تتشوه النفوس فلا تظل سوية ، وتفرز ذواتهم أسوأ ما فيها من عدوانية وشذوذ وابتزاز وحقد .
إنها الغرف المقبضة في البيت والمدرسة والجامعة والمسجد والزنزانة ، الغرف التي تمد مخالبها علي ساكنيها وتجعل حلم الفكاك من قدرها أمراً بعيد المنال ، وتظل الغرف الأخرى المريحة والنظيفة علي الجانب الآخر قليلة ، متفردة ، غريبة ، تنظر إليه باستعلاء مزدري ، هكذا يكتب عبد الحليم عنها بلغة بسيطة تناسب المعنى المقصود ، كأنه يرسم الصورة بأقل الكلمات وأكثرها وضوحاً ، لتتحدث الصورة عن نفسها بلا " رتوش " ، وتبدو في كثير من المواضع لغة محايدة

وجافة تنصب علي الغرف وقدرها الكابوسي ، لتتوارى كثير من الأحداث التي تثير فضولنا وتساؤلنا : لماذا انخرط عبد العزيز في عمل ثوري قاده إلي الزنزانة ؟، من هم الذين تكتم ولم يفصح عنهم ممن كانوا معه ؟ ، وما هي ماهية العلاقة بينه وبين متغيرات المجتمع المصاحب للمد الثوري لثورة يوليو 1952 م ؟ ، لماذا هذه الديمومة في سكنى الغرف المقبضة ؟ ، هل كتب عبد الحكيم جزءاً من سيرته الذاتية مستخدماً الحيلة الروائية ، فحتم ذلك عليه عدم البوح بما يجب أن يفصح عنه إيثاراً لطبيعته الشرقية ، متجاهلاً ما وصل إليه الغربيون من صدق في سرد ذواتهم وتعرية نفوسهم بلا خجل ، كما تساءل أحد النقاد ؟ .. ربما .

* * *

في رواية " الأخت لأب " نفس العالم الأثير بالنسبة لقاسم : القرية ، لكننا هذه المرَّة مع هذا الطفل الوحيد " شوكت " في محاولاته الدءوبة للدخول لعالم أسرته لأبيه حاملاً علي كتفيه وطأة غرابة الاسم وبياض البشرة ونعومة الشعر وعائلة أمه التي ترتدي ملابس أخرى وتتحدث بلغة أخرى في مواجهة مسميات القرية وسحن ناسها الملوحة بالشمس ، وأهلها وهم يفلحون الأرض ولا يملكون من حطام الدنيا إلاَّ عافية البدن ، يبغضون أمه الغريبة عنهم ، تتعثر محاولاته في هزال بدنه ، والأب الغائب في معظم الأحوال . يتوقف حائراً أمام مظاهر النفور البادية من أخوته لأبيه والأعمام وزوجاتهم ، يحاول ويقترب من أخته لأبيه " مبروكة " ، ينتظر عودتها من الحقل ليلعب معها محاولاً الدخول لعالمها ، تدفعه في لعبة " العريس والعروسة " مع " عفت " الجميلة للاندماج في دوره والوصول لنهاية اللعبة ، يحزن ، ويتنامى الحزن في نقاط كثيرة من الرواية بأحداث متتالية علي القلب الطفلي .

أمَّا في " سطور من دفتر الأحوال " نجد أحوال القرية دوما علي مر الأجيال والعصور : فلاَّحين مقهورين ، معذبين ، مغروسين في طين الأرض ، أمَّا السادة فهم دوما السادة ، يأتون في حللهم النظيفة من العواصم والبنادر ، نقرأ ما بين السطور عن بيوت الطين والمساجد والمحاكم ونقاط الشرطة ، نقرأ ما بين السطور أيضاً عن قوة النفوس في مواجهة البطش والقسوة .

* * *

في رواية " المهدي " (12) يغوص عبد الحكيم بقلمه في عالم الجماعات الدينية ، ذلك العالم الشائك ، نحن معه بين مجموعة من شباب الإخوان المسلمين في القرية ، جماعة تدعو لصحيح الدين وتحاول تمثله في حياتها ومعاملاتها و اجتماعاتها وعباداتها ، بالخطابة والوعظ والمؤتمرات ولجان المساعدة وفرق الجوَّالة .. الخ .

لكنها بانكفائها علي ذاتها تتعثر حين تمد يد العون للمعلم " عوض" القبطي صانع الشماسي ، الذي جاء إلي القرية مأزوماً بمشاكله ، ثم تدعوه لهداية الإسلام ، ويستسلم صاحب الحاجة للأيدي التي تنتزعه من جذوره وتفصله عن جماعته التي التصق بها طوال عمره ، تتحطم نفسه ولا يستطيع المضي قدماً معهم ، ويسقط من بين أيديهم فاقداً وعيه ، بينما مظاهر الاحتفال بهدايته في ذروتها ،

التهليل والتكبير ومكبرات الصوت الزاعقة التي طغت علي صوت الوطن الذي يحمل فوق أرضه وتحت سمائه كل أبنائه مهما اختلفتْ عقائدهم ، هل كانت تجربة قاسم كمسلم يعيش في مجتمع مسيحي بألمانيا دافعة له لكتابة " المهدي" ؟ ، هل تجنى قاسم علي الأخوان المسلمين في هذه الرواية ، خاصة أن مجتمعنا لا يعاني من مشكلة طائفية ؟ ، لا يوجد اضطهاد ديني أي مستوى حتى في أكثر الأوقات تصاعداً لحدة الإرهاب المستتر بعباءة الدين ، والذي وجَّه رصاصاته لصدور المسلمين والمسيحيين علي حد سواء ، يرد قاسم علي هذه التساؤلات في حديثه لمجلة الرافعي(13) بأنه قريب جداً من الفكر الإسلامي ، ولا يوجد فيرأسه فكرة غير إسلامية ، ويقول أيضاً : " أنا لست شيوعياً تائباً كما يرى البعض ، فأنا لم أكن أبداً ماركسياً أو شيوعياً بالمعنى الحرفي للكلمة ، كل ما هناك أن في الماركسية بعض الأفكار التقدمية من حق الناس أن يأخذوا بها حتى ولو لم يكونوا ماركسيين " ، ويقول أيضاً : " تلك هي حيرة الإنسان المخلص حين يكون في وسط عقائدي يزحمه بعقائديته " .

* * *

" الظنون والرؤى " (14) مجموعته القصصية الأولى التي تضم قصص : القضية ، تحت السقوف الساخنة ، عن البنات ، شجرة الحب ، الموت والحياة ـ حكايات حول حادث صغير ، البيع والشراء .

هي قريته التي مازال يكتب عنها ، يقول " إدوار الخراط " : " الظنون والرؤى هي القرية المصرية ، أفراحها وطقوسها ، أوجاعها وغضباتها ، ترديها ومجدها ، واقعها وحلمها " .

في قصة شجرة الحب ثمة مقاطع أو أقاصيص متصلة ومنفصلة في آن :

الأم ـ الولد ـ شجرة الحب ـ عن الرجال ـ معلم الصبيان ـ يوم غير مجيد ـ ثمالات أحاديث .

يرسم قاسم صورة رائعة لبائعة البلح ، وهذا الولد الغريب ، والأولاد الذين رسموا علي جباههم شجرات الحب ، تنادي علي بضاعتها : " يا بن الطويلة يا بلح .. يا هز نخلتنا .. خسارة عليك في التراب يا نايح " . أيضاً عندما يختتم عبد الحكيم قصته وهو يناجي الصباح : " ما أشوق كل المخلوقات للصبح ، للنور تزدهي فيه أوراق النوار وأجنحة الفراش " .

* * *

تضم مجموعة " الأشواق والأسى " (15) ثمان قصص ، يبدأها قاسم بقصة " قريتي " : " اسمها البندرة ، قد تجدون الاسم ثقيلاً ، لكنه ـ لو تعلمون ـ كل متاعي حينما عرفت السفر إلي المدينة " . في قصة " الصندوق " : " صندوق مبروكة الذي يحتوي حاجاتها وأحلى ذكرياتها في أيام زواجها القليلة ، فالغالي قد رحل وتركها في دار أخيها ، يمضي العمر بها كليل الشتاء ، لا تجد سلواها سوى في الصعود وقت القيلولة للسطح حيث الصندوق ، تفتحه وتتلمس الأشياء وتروق

نفسها قليلاً ، لكن ، حتى هذه المسرَّة الصغيرة لا يتركها لها أطفال أخيها وأمهم : " العيال وحاجاتهم للكساء " . أمَّا في قصص " ليلة شتوية " و " السفر " و " الخوف القديم " و " غسق" و " الصفارة " و الخوف " نمضي مع أناس قريته ، فمأساة " صديقة " ، في ليلة شتوية ، تلوكها الألسن علي أسطح الأفران الدافئة في ليالي الشتاء ، لقد أخذت بثأر محمد المسفوك دمه أمام عينيها ، هل هي قاتلة حقَّاً ؟ ، تمضي أيامها وحيدة وهي ترعى أغنامها وتستقبل نتاجها الوليد في عز الليل ، تضمه لصدرها المكدود المجدوب " : " تثغو الشاة الأم ثغاءً فيه فرح " . وفي قصة " السفر " تمضي المرأة ساعية نحو الضريح : " جئتك حافية ورأسي عريانة " ، هي رحلة القرية للمدينة ، تلك المدينة الصاخبة بالمساومات والصياح والشتائم وزفرات المخدوعين ، مدينة قبيحة : " لولاك ما جينا يا أبو فرَّاج " .

* * *

" طرف من خبر الآخرة " (16) ، إنها الرواية الخامسة والتي تتناول علاقة الإنسان بالآخرة : الموت والقبر والملكان والحساب والنشور ، وتعرج الرواية علي تفاصيل الموت والغسل والتكفين ، عن ناكر ونكير ، قصة الحفيد وقصة الميت خطان يتلاقيان ويتباعدان ، يقول الناقد محمود عبد الوهاب : " رواية لا يعنيها تدهور وانحطاط التركيب العضوي لجسد الإنسان ، ولا يعنيها تقصي الطقوس المواكبة لذلك الموت البيولوجي طوال رحلة خروج الفرد من دنيا الأحياء ، إن ما يعنيها هو الكشف عن حركة دولاب الحياة والموت طوال سني العمر ، وعن مسافة الاقتراب أو الابتعاد عن دائرة التوافق والتناغم والانسجام مع قوانين الوجود " .

* * *

في " الهجرة إلي غير المألوف " (17) كتب قاسم علي غلافها : " ديوان قصص " ، وتضم : " الصوت ـ عطية أبو العينين داود ـ طبلة السحور ـ رجوع الشيخ ـ المهدي ..
إذا ما توقفنا قليلاً أمام قصته الفريدة " طبلة السحور " حيث تتشابه البداية والنهاية : " والرجل يمضي في ليل الحارات كتلة من الظل في شفيف العتامة .. " ، وما بين البداية والنهاية دوَّامات وتيارات من الذكريات والمشاعر ، وأناس عرفهم وأحبهم الراوي ، منهم " الشابوري " صديق الطفولة الذي يعيده للماضي الجميل ، حيث طقوس شهر رمضان القرى ، والقلب الطفلي الذي يتلقى الصدى ، " الشابوري " يحمل طبلة السحور ويدور ، والراوي يهمس متسائلاً كل حين : " ما هي طبلة السحور ؟ ، طبلة السحور ما هي ؟ " ، وهانحن نمضي خلف الشابوري في ليل الحارات ببحث عن لصدى ويقظة الروح .

* * *

وفي قصص " ديوان الملحقات " (18) ندرك أن الملحقات هنا إنما يعني بها قاسم ، أو ربما أراد أن يوحي لنا ، أن هذه القصص التي تضمها المجموعة هي ملحقات لأعماله السابقة ، وهي قصص كتبها تقريباً بعد محنة المرض ، كما أنها في معظمها تميل للقصر . ففي قصة " صاحبة النزل " نجد المرأة التي تسقط تحت وطأة الوحدة بين براثن الطالب الذي يسكن عندها ، كيف خدعها وهرب ؟ : " ثم نطحت الباب برأسها وسقطت والدم ينبجس من جبينـها " .

*** * ***

مسرحية " ليل وفانوس ورجال " (19) هي مسرحيته الوحيدة ولا يبتعد عن عالم القرية ، المضيفة عليها أثار عز قديم ، والأب والابن والجد والضيف والصديقان والزوجة والحبيبة شخوص تلتقي في عالمين : عالم الأب والجد والابن في تواصله وامتداده ، متسلحاً بالحكمة والمعرفة والمثل العليا ، وعالم الضيف والصديقان وابن الأخ في التصاقه بالواقع المعاش ، بالأرض والرهن والمزاد ، الأب يبدو فوق أريكته تحت ضوء الفانوس ككائن أسطوري يعلو بمثله وقيمه وحكمته فوق البشر، غير آبه أو هيَّاب حتى بعد أن تجمعت حوله كل نذر الشر ، فالضيف يقرقع بسكينه في مخلاته ، وابن الأخ يحذره من القاتل بعد أن انصرف عنه الصديقان ، الخنجر يتجه للصدر المعزول المتقوقع في علوه ، يمضي الأب في صحبة الجد في صورة كأنها حلم ، بينما يعتلي الابن ذات الأريكة ، وتحت ضوء الفانوس ، في ديمومة مفارقة لدنيا الناس .

*** * ***

ويرحل عبد الحكيم قاسم كما يرحل كل الناس ، فقد كانت حياته قصته ، وقصته هي حياته ، وعندما توقفت حياته وانقصف عوده ، فإن قصته لم تكتمل ..

يقول شاعر العامية المصري مخاطباً إيَّاه :

تاخد قلمك من صدرك
أنا بكتب أهه ,, ألف باء ألف باء
وأنا الشمس في صدري بتتفتت
ولعت سيجارة وأخدت شهيقي
يضغط ع الشمس يجمعها
ونصبت الكلمة فوق صدري
وتبعتك " .

...

رحم الله عبد الحكيم قاسم بقدر ما أعطى .

هوامش ومراجع :

(1) جريدة المساء مقال للكاتب 12/9 / 1990م
(2) الستينات : جيل الحساسية المفرطة ـ مجلة الأقلام العراقية ـ أيلول 1985 م .
(3) حديث لمجلة الرافعي ـ العدد 7 ـ 1988 م لمحمد حمزة العزوني .
(4) نفس المصدر السابق.
(5) نفس المصدر السابق.
(6) حديث لمجلة أدب ونقد ـ العدد 16 ـ أكتوبر 1985 ـ اعتماد عبد العزيز .
(7) المصدر رقم 3 .
(8) نشرت عام 1986م وأعيد طبعها في سلسلة مختارات فصول فيما بعد ومطبوعات مكتبة الأسرة 1996 م بالهيئة المصرية العامة الكتاب .
(9) المصدر رقم 6 .
(10) سلسلة الرواية العربية ـ هيئة الكتاب 1987م .
(11) مطبوعات القاهرة ـ الطبعة الأولى 1982 م .
(12) نشرت مجموعة " الهجرة إلي غير المألوف " بدار الفكر 1986م.
(13) نفس المصدر 3 .
(14) قصص ـ دار المستقبل العربي ـ طبعة أولى 1986م .
(15) قصص ـ مختارات فصول ـ هيئة الكتاب 1986م .
(16) رواية ـ مختارات فصول ـ هيئة الكتاب 1986 م .
(17) قصص ـ دار الفكر 1986م .
(18) قصص مختارات فصول ـ هيئة الكتاب ـ يناير 1990 م.
(19) مجلة إبداع ـ نوفمبر 1985 م .
(20) قصيدة مشوار الشمس إلي عبد الحكيم قاسم ـ الرافعي ـ العدد 4 ـ نوفمبر 1987 م .

عبد الناصر و " ذو القناع الجلدي "

توطئة :

عندما كنت أراجع مقالي هذا : (عبد الناصر و " ذو القناع الجلدي ") ، فوجئت بالرحيل المفاجئ للأديب الكبير " عبد الرحمن فهمي " ، الذي حفزتني تصريحاته لصحيفة " المساء " القاهرية في 22 - 7 - 2002 م ، علي العودة لروايته " في سبيل الحرية " مرةً أخرى ، ومن ثم كتابة هذا المقال .
و" عبد الرحمن فهمي " صاحب العديد من الأعمال الأدبية الهامة ، مثل : " رحيل شيخ طريقة " و " دموع رجل تافه " و " تاريخ حياة صنم " وغيرها ، وله العديد من المسرحيات منها : " مصرع كليب " و " محاكمة مطرب نشاز " وغيرها ، والكثير من الأعمال المستلهمة من التراث ، كما كان " عبد الرحمن فهمي " فارس الإذاعة المصرية الأول في عصرها الذهبي ، وما زالت أعماله الدرامية الرائعة ماثلةً في أذهان المستمعين مثل : ملحمة " دماء علي الصحراء " التي تحكي قصة حفر قناة السويس و " المماليك " و " ملك الأورنس " و " عودة ريا وسكينة " وغيرها من الأعمال .
رحم الله " عبد الرحمن فهمي " بقدر ما قدمت أياديه البيضاء للأدب والفن والحياة .

* * *

حملتْ مظاهر الاحتفال بالعيد الذهبي لثورة 23يوليو1952 كثيراً من المفاجآت غير المعتادة ، ويبدو أن مرور (50 عاماً) من عمر الثورة إنما يعني في المقام الأول البعد الزمني الكافي ، الذي لابد وأن يضفي عليها مزيداً من النضج في الفهم ، وعقلانيةً في التناول ، وتسامحاً مع الآخر ، ووعياً بالمتغيرات العالمية المتسارعة والمتلاحقة .
لقد أكلتْ الثورة بالطبع بعض ثوَّارها ، وودَّعت أيضاً عبر السنوات كثيراً من أبطالها الذين رحلوا عن الحياة ، ولم يتبق منهم إلاَّ القليل ، الذين يجترون - كالعادة في مثل هذه المناسبة - ذكرياتهم عن الثورة ، ولكن المفاجأة هذه المرَّة : كانت التكريم الرسمي لهم - علي غير العادة - في هذه المناسبة الاحتفالية . ولقد كان شيئاً ملفتاً للنظر أيضاً في مظاهر هذا الاحتفال ، تراجع حدَّة التراشق المعتاد بين " الناصريين " و" الساداتيين " بمؤشر واضح ، يعني أن تلك المعارك الكلامية لا جدوى ولا طائل من ورائها إلاَّ التجريح في أبطال الثورة . وفوجئ العامة بالملك السابق " فاروق الأول " يطل عليهم خطيباً في إحدى المناسبات القديمة - بالصوت والصورة - من شاشة التلفاز ، مخلفاً صورته المتكررة لدى مغادرته مصر مطروداً من قصر رأس التين ومستقلاً تخته إلي أوروبا ، الصورة

التـي ثُبتـت فـي أذهـان العامـة آلاف الآلاف مـن المـرات . بـل تعـدَّى الأمـر ذلـك باستضافة الملكة السابقة " ناريمان " ، وبعض أفـراد الأسرة العلويـة ، للتحدث عن مليكهم السابق ولحظات الثورة عليه ، ودحض التـهم التـي علقت بـه من خمسين عاماً خلتْ . كما رأى الناس " محمد نجيب " أول رئيس للجمهورية وهو يخطب في الجماهير محاطاً بالثوَّار الشبَّان في ذلك الوقت ، مع ذكر اسمه صريحاً وجنبـاً إلـي جنـب مـع اسـمي " عبـد الناصـر " و" السـادات " ، فـي الاحتفـالات الرسمية وأهازيج " الأوبريتات " الغنائية المصاحبة لها ، وبدا الأمـر فـي غمرة هذه الاحتفالات غير المسبوقة ، وكأنما ثمة تصالح يحدث بين متناقضات كثيرة ـ كانت قائمة في الماضي ـ علي كافة المستويات .

أمَّا الأمر الذي لفت نظري ، ولابـد أنـه لفت أنظار العاملين بالحقل الأدبـي بصفة خاصـة ، كـان مـا يتعلـق بنفـي الصلـة الأدبيـة بين " عبـد الناصـر " وروايـة " فـي سبيل الحرية " المقترنة باسمه ، والتي قيل عنـها دوماً ، أن " عبد الناصر " قد بدأ كتابتها وهو طالب بالمرحلة الثانوية ، وجاء هذا النـفي علي لسان الأديب الذي أكملها فيما بعد من خلال المسابقة التي نظمها " المجلس الأعلى للفنـون والآداب والعلوم الاجتماعية " آنذاك ، وارتبط اسمه باسم " عبد الناصر " علـي غلافهـا طوال السنوات الماضية : إنه " عبد الرحمن فهمي " .

ولم يكن غريباً فيما بعـد أن يرتبط اسم " السادات " أيضاً ببعـض المؤلفات مثل كتـاب " يـا ولـدي .. هذا عمك جمـال " ، والكتـاب الـذي يضـمنه سيرته الذاتيـة " البحث عن الذات " ، بـالرغم ممـا يقـال بأنـه ليس مؤلفهـا الحقيقـي . وربمـا صـار أمـراً عاديـاً الآن أن يـرتبط بعض الزعمـاء العـرب ، بـالحق أو بالبـاطل ، وربمـا تقليداً لـ " عبد الناصر " ، بمؤلفات أدبيـة أو غير أدبيـة تحمل أغلفتها أسماءهم .

وقد أغرتني المفاجأة بالعودة إلي قصة " في سبيل الحرية " التي تتنـاول المعركـة الخالدة التي خاضها أهل رشيـد سنة 1807 م ، عنـدما تصدُّوا للحملـة الإنجليزيـة بقيـادة " فريزر " وألحقوا بها هزيمةً منكرةً . ولا بد أن " عبد الناصر " بطبيعتـه الثورية المبكرة ، وفي ظل الاحتلال الإنجليزي الذي كان يرزح علي صـدر مصر ، كـان معجـباً بهـذه الملحمـة التـي أرَّخ لهـا كـل مـن : " البغـدادي " فـي " إيضـاح المكنـون " ، والرافعـي " فـي " تـاريخ الحركـة القوميـة " ، و" المقريـزي " و " الجبرتي " و" ابن إياس " .

و " رشيـد " ـ الأرض والنـاس ـ مدينـة ساحلية قديمـة تقـع علـي الضفة الغربيـة لفرع النيل المسمى باسمها ، حيث يلتقي النهر والبحر ، وقد ارتبطت عبر تاريخها الطويل بكثير من الأحداث الهامـة ، فقد انتصر أهلها فـي العصور القديمـة علـي الغزاة إبان " الأسرة 19 " الفرعونية ، كمـا لعبت دوراً حربيـاً وتجاريـاً هامـاً فـي الدولـة الإسـلامية ، كمـا قـاوم أهلهـا فـي العصر الحديث الفرنسيين أثنـاء الحملـة الفرنسية بقيادة " نابليون بونابرت " ، وهم أيضاً الذين زوَّجوا ابنتهم الجميلـة " زبيـدة البواب " من القائد الثالث للحملـة الفرنسية " جاك فرانسوا مينـو " الذي غير اسمه إلـي " عبد الله مينـو " بعد أن أشـهر إسلامه . ومن قلعتهم الشـهيرة انتزع " حجر رشيـد " الذي ساعد العـالم الفرنسي الشـهير " شامبليون " علـي

فك رموز اللغة المصرية القديمة . ولهذا لم يكن غريباً أن يغنَّى الوجدان الشعبي المصري إعجاباً بالإنسان الرشيدي أغنيته الشهيرة :

" ادَّلع يا رشيدي علي وش الميَّه "

ولقد أغرتْ " رشيد " محبِّيها من الأدباء للكتابة عنها ، فكانت " غادة رشيد " ، الرواية الرومانسية الجميلة التي تحكي قصة " زبيدة " ، للأديب الكبير " علي الجارم " ، والتي استتبعها ظهور كثير من الأعمال القصصية والمسرحية ، والدراما الإذاعية والتليفزيونية ، وكان آخر ما اطلعت عليه مؤخراً : مسرحية للطلائع بعنوان " بنات رشيد " للأديب " فؤاد حجازي " .

أمَّا رواية " في سبيل الحرية " التي تتصدر صفحتها الأولى صورة " عبد الناصر " ، تبدأ بالجزء الذي كتبه الطالب " جمال " في المرحلة الثانوية ، ويحتل من الكتاب (14 صفحة) غير مرقمة : تمهيد وخمسة فصول . يقول " جمال " في التمهيد :

(يوم لا ينسى ...

... هذا اليوم العابس أوله ، الباسم آخره في عام 1807 م .

قال الإنجليز هذه مصر استقلت عن الترك وحكمت نفسها ، وهي علي هذا لقمة سائغة تمضغ وتبتلع ، إذ ماذا تستطيع ملايينهم الثلاثة أن تصنع أمام أسطول بريطانيا وجيشها المدرب العظيم ومدافعها وقنابلها ؟ . قال الإنجليز : هذه هي الفرصة قد سنحت لتحقيق حلم قديم ، وأمل طالما جاش بنفوس الإنجليز القدماء ...)

ويمضي التمهيد موضحاً حقيقة دخول الإنجليز للإسكندرية ثم وصولهم حتى مشارف " رشيد " حيث تبدأ أحداث القصة في الفصل الأول بحدث مهم ، وهو الدور الذي اضطلع به " الشبح الغامض " في تنبيه وإيقاظ " مراد باشا " وجنوده قبل وصول القوات الإنجليزية التي تحركت من معسكرها ليلاً لمفاجأته والانقضاض عليه : (كان الباشا مستلقياً علي الأرض مدججاً بالسلاح كامل العدَّة ، فلما طرق الصوت سمعه وبدأت الحركة ، أفاق من نومه في الوقت المناسب ، ووثب واقفاً فلم يجد أحداً معه في الغرفة ، ولكنه لمح ظلاً مبهماً لرجل طويل القامة يبرح الخيمة بسرعة زائدة ، فظن أنه حلم ..) ، وفشل الهجوم قبل أن يقع وارتدت قوَّات الأعداء علي عقبيها . هل كان الطالب " جمال " معجباً بشخصية هذا الشبح الغامض بكل ما تثيره من خيال ؟! . لقد أعطى " عبد الرحمن فهمي " شخصية " المقنع " هذه أبعاداً أخرى ذات دلالات تلائم مقتضيات التصدي للغزو ، فالمقنع يظهر في الصفحات الأولي من الرواية أيضاً عندما ينتقم من " إسماعيل أغا " ، المملوك المتخصص في نهب أموال اليتامى بالكذب والترهيب . أمَّا باقي الصفحات التي كتبها " جمال " ، تتوالى فيها الأحداث بسرعة حتى الفصل الخامس الذي تحدث فيه المساومة بين المرابي " قطَّان باشا " : جاسوس الإنجليز ، مع " طاهر بك " ، لأجل أن يزوج ابنته من ابن " طاهر " ليتمكن من التجسس علي أعمال المقاومة الشعبية لأهل رشيد .

أمَّا القصة التي كتبها " عبد الرحمن فهمي " تتصدرها عبارة : (القصة التي فازت بالجائزة الأولى في المسابقة التي أجراها المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية) ، وفي المقدمة يقول : (هذه الرواية بُنيت أحداثها علي أساس من الصفحات التي كتبها السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، ولم يتعد دوري السير مع الشخصيات التي ابتدعها سيراً يتفق مع المنطق الروائي من ناحية والمنطق التاريخي من ناحية أخرى ، وقد اقتضى المنطق الروائي أن أبدأ قبل البدء بشهور قلائل مهدت فيها للأحداث ، وقدمت فيها الشخصيات ، ووضحت ما بينهم من علاقات ..) ، ونوَّه عن حذفه لشخصية " حسن " من صفحات " جمال " حتى لا يضر تطورها بالرواية ، واستبدل بعض أسماء الشخصيات لتلائم الأسماء الشائعة في مطلع القرن التاسع عشر ، وأوضح اعتماده تاريخياً علي كتابات " الرافعي " ، ومؤرخ العصر " الجبرتي " ، وكتابات المستشرق الإنجليزي " إدوار لين " . وفيما يخص مدينة " رشيد " اعتمد علي " الخطط التوفيقية " لـ " علي مبارك " . بعد هذه المقدمة تأتي الرواية التي كُتبت بتصرف في أكثر من (490 صفحة ـ طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي) ، منذ أكثر من أربعين عاماً ، وفي ثلاثة أجزاء : الجزء الأول ـ حتى الفصل 18 ـ يتصدره مقولة " الرافعي " : (دعا الجنرال ستيوارت الألفي بك إلي مغادرة مصر والسفر إلي لندن ليبرهن للحكومة الإنجليزية علي سهولة الاستيلاء علي مصر واستغلالها سياسياً واقتصادياً) . والجزء الثاني ـ حتى الفصل 39 ـ بمقولة " الجبرتي " : (وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر منتبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت ، فلمَّا حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية) . والجزء الثالث ـ حتى الفصل 62 ـ بمقولة " الجبرتي " أيضاً : (.. فلما وصلوا إلي متاريس الإنجليز دهموهم من كل ناحية علي غير قوانين حروبهم وترتيبهم وصدقوا في الحملة عليهم وألقوا أنفسهم في النيران ولم يبالوا برميهم ، وهجموا عليهم واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطأوا رميهم ونيرانهم ، وذبحوا الكثير منهم وفرَّ الباقون إلي من بقي بالإسكندرية ، وليت العامة شكروا علي ذلك أو نسب إليهم فضل ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره) ، وتعتبر كل مقولة من المقولات السابقة عنواناً كبيراً نسبياً ودالاً للقارئ لكل جزء من أجزاء الرواية . واحتفظت الرواية بالطبع بالأسماء الحقيقية للشخوص التاريخية مثل : " السلانكلي " حاكم رشيد ـ " حسن كريت " نقيب الأشراف ـ " بتروشي " القنصل الإنجليزي وغيرهم . بالإضافة للأسماء التي أبدعها ، كأسرة " طاهر الإدكاوي " أو شلة " نور الدين " ، ولم تفت المؤلف التأكيد علي وحدة النضال العربي آنذاك متمثلاً في مشاركة التاجر " محمود الحلبي " ابن الشام ، أو أبناء مكَّة المكرمة من المجاهدين . والوحدة الوطنية لطوائف الشعب ، ودور أقباط رشيد : القس والمعلم " لطف الله " . وفي الجانب المقابل ، كان هناك الجاسوسان : " موسى " اليهودي المالطي ، أحد أفراد شلَّة " نور الدين " ، و " قطَّان باشا " اللاجئ الأرمني الذي لا تتضح حقيقته إلاَّ مع الصفحات الأخيرة . وتتوالى قصة المقاومة الباسلة متوازيةً مع قصتي الحب بالرواية : " محسن /

دلال " و " إبراهيم / نورهان " ، مع كثير من المفاجآت المدهشة التي يصنعها : المقنع وأفراد الشلة العابثة و" قطّان " و" بونابرته الصغير " وغيرهم .
وبالعودة إلي الأمر الذي لفت نظري في حديث " عبد الرحمن فهمي " مع الشاعر " حزين عمر " بجريدة المساء في 22 - 7 - 2002 م فيما يُعد مفاجأة ،عندما قال : (كنت جالساً مع يوسف إدريس في مقهى عبد الله (مقهى شهير بضاحية الجيزة كان يؤمه مشاهير الأدباء) وجاءنا عبد القادر القط بخبر يستنكره وفحواه أن المنافقين أعلنوا عن مسابقة لاستكمال عدة صفحات كتبها تلميذ في المدرسة ، ويريدون من الكتَّاب أن يحولوها لرواية ، وأخذت الأمر بجدية وتحد ليوسف إدريس الذي قال من المستحيل إكمالها كرواية ، أمَّا أنا فرأيت فيها بذرة رواية يمكن أن تكون ناضجة فعلاً ..) ، وأضاف أنه أكملها في شهر ، واختارت اللجنة عشرة للفوز كان " فهمي " أولهم ، ونفاقاً للضباط اقتسمت الجائزة مع واحد منهم ، واستمر النفاق في التفاوض معه علي النشر ، حتى حسم " عبد الناصر " الأمر عندما قرأ العمل وقال عنه " كلام فاضي " وطلب تقديم رواية " فهمي " فتحولت إليه وسائل الإعلام . وقدمت كمسلسل لكنها لم تنتج سينمائياً .
ويفجر " فهمي " مفاجأته عندما يقول : (اكتشفت بعد وفاة عبد الناصر أن الرواية ، أو هذه الصفحات العشر تقريباً ، ليست له ، بل نقلها بخطّه وهو تلميذ بالثانوية من رواية (ذو القناع الجلدي) للبارونة أوركيزي ، ولم يكن هذا أسلوباً معيباً أو غريباً فكلنا أيام الدراسة حينما نعجب بقصيدة أو قصَّة لأمثال شوقي وحافظ والمنفلوطي كنَّا ننقلها في كراساتنا المدرسية بخطنا ونفخر بها ، وعبد الناصر فعل مثلما كنا نفعل جميعاً ، لكن المنافقين بعد الثورة اكتشفوا هذه الصفحات في كراسة عبد الناصر وبخطّه فأعلنوا أنه كاتب روائي ، وأنه بدأ برواية ولم يكملها ، ثم أعلنوا هذه المسابقة وما بعدها ..) . وأضاف أن " مهدي علاَّم " (عضو لجنة التحكيم بالمسابقة) كتب يقول إن " عبد الناصر " أراد أن يحرر الوطن بالقلم فبدأ بكتابة هذه الرواية ، ثم رأى أن التحرير لا يكون إلاَّ بالسيف فقاد ثورة يوليو . " لم يعلن عبد الناصر أنه روائي ولا أديب لكن المنافقين هم الذين ورَّطوه في هذه المسألة " . ووعد " فهمي " بأنه إذا طُبعت الرواية طبعةً جديدةً فسوف ينسب هذه الصفحات العشر لرواية أوكيزي " ذو القناع الجلدي" .

* * *

وتبقى الحقيقة التي تقول أن " عبد الناصر " زعيم عربي كبير حقق لمصر وللعرب الكثير ، وأخفق أحياناً كما يخفق كل الثوَّار ، ولا ينتقص منه أو يزيده أن يكون أديباً أو لا يكون ، لكن الشيء المؤكَّد أنه كان محباً للأدب وللأدباء ، وكرَّم الرموز منهم في شتى المناسبات : " عباس العقَّاد " و" طه حسين " و" توفيق الحكيم " وغيرهم ، واعتقد أنه كان يشجع ويمد يد العون لكل ما من شأنه أن يخدم ويحقق أهداف ثورة يوليو .

" العربي " الغريب في " الغريب " لـ " آلبير كامو "

" تشبثت يدي بالمسدس ، وهاهو الزناد يلين تحت أصابعي ، وهاهي ذي الضوضاء الجافة المرتفعة التي من خلالها بدا كل شئ ، نفضت العرق والشمس ، وعندها أدركت أنني كنت بالفعل قد حطمت هدوء ذلك اليوم ، وكسرت صمت ذلك الشاطئ الذي كنت سعيداً فوقه " ..

لا ريب أن قارئ رواية " الغريب " لـ " آلبير كامو " (1913 - 1960) ، والتي تعد واحدةً من أعظم روايات القرن العشرين ، والرواية الأكثر انتشاراً في الأدب الفرنسي بعد الحرب العالمية الثانية ، سوف يتوقف عند ذروة الحدث في الفقرة السابقة ، الذروة التي أطلق عندها " مارسو " ـ البطل / الراوي ـ رصاصته علي المواطن " العربي " فيرديه قتيلاً ، ثم يعقب هذا ـ بعد لحظات ـ برصاصات أربع أخرى تخترق الجسد الهامد ، وتنشطر الرواية بجوار النبع لشطرين ، قبل القتل ثم بعده ـ من قبل كان " مارسو " يودِّع أمَّه التي ماتت في دار المسنين بـ " مارينجو " ، التي تبعد ثمانين كيلو متراً من الجزائر العاصمة ، لمثواها الأخير بمشاعر باردة لفتت أنظار موظفي الدار ، وحيث يعود سراعاً لحياته ولهوه مع صديقته " ماري " في حمام السباحة أو السينما أوفي شقته ، وتتشابك علاقاته مع جاره " ريمون " في تصاعد درامي حتى تبلغ اللحظة الدموية القاتلة ، أمَّا ما بعد القتل فيتمثل في براعة " كامو " في تصوير مشاعر " مارسو " في الزنزانة أو في المحاكمة ، انتظاراً لحكم الإعدام الذي يلوح في الأفق ، كي يطيح برأسه في ميدان عام باسم الشعب الفرنسي .

أمَّا القارئ العربي ـ بصفة خاصة ـ لابد وأن يتوقف أمام شخصية " العربي " الروائية في ثنايا وحواشي الرواية التي تدور أحداثها علي أرض الجزائر ، خاصة أن " كامو " الفرنسي قد وُلد في " موندوفي " علي أرض " قسنطينة " الجزائرية لأب يعمل بالزراعة ما لبث أن قتل في إحدى معارك فرنسا ، وانتقل بعد ذلك مع أمه للعيش مع جدِّته ، حيث تعلم وعمل في مهن عدَّة كالتدريس والصحافة ، وحيث تجلَّت موهبته الأدبية علي أرضها ، وكتب عنها جل أعماله التي منحته شهرةً عالمية واسعة ، ومنها تكونت فلسفته التي آمن بها وضمَّنها إبداعاته ، حتى أن الكثيرين من مبدعي المغرب العربي يعتبرونه مبدعاً جزائرياً قلباً وروحاً كما يقول " حسونة المصباحي " في مقال له بعنوان " آلبير كامو مبدعاً جزائرياً " : " حتى وإن كره الذين استشفوا رائحة عنصرية ضد العرب في رائعته الغريب " .

والحقيقة أنه لا تخفى علي قارئ " الغريب " ملامح الشخصية العربية التي تتجلَّى معالمها بوضوح ، فهي منفية داخل ذاتها ، غائمة الملامح ، مجهولة الاسم

والرسم ، حتى لتبدو في أدوارها المكبَّلة المرسومة لها ككائنات وهمية في وطنها وعقر دارها ، وفي حركتها المحدودة كالأشتات الصامتة المستعبدة ، وإطار الصورة لا يتسع إلاَّ للمليون مستوطن فرنسي ، ولا يمنح التسعة ملايين جزائري أية مساحة . كما تتجلى نظرة هذا الراوي / الغريب بغربته ـ التي صورها " كامو " ببراعة عن نفسه وعن الكون كله وعن الخالق الأعظم ـ إليهم كغرباء آخرين ومختلفين : العلاقات غير مكتملة ، ومبتورة بالحجم الذي يجعلها ثانوية التأثير ، كما أنها متوازية بالقدر الذي يبعد الآخر ، فلا لقاء طبيعي أو مثمر بين الأطراف في الصراع ، والنظرة حيادية لكائنات مهمشة ودائماً غير واضحة .
يقول الراوي : " بالقرب من التابوت كانت هناك ممرضة عربية في جلباب أبيض وتغطّي نفسها بمنديل ملوَّث " ، ويضيف " مارسو " : " عندما توجهت نحو باب الخروج قال لي الحارس إنها مصابة بتقرح ، وكانت الممرضة تغطي وجهها بقناع أبيض اللون لا يرى منها سوى عينيها ، وعند مستوى الأنف كان القناع مسطحاً ولا يرى تحته سوى الضمادات البيضاء علي الوجه " ، هذه الممرضة لم تنبث ببنت شفة ولم تشارك برد فعل في المساحة المخصصة لها . وأثناء تشييع جنازة أمّه يشير للكنيسة وللفلاَّحين فوق الأرصفة . وفي الجزائر العاصمة يلتقي بجاره في المسكن " ريمون " ، ويخبره الأخير عن العربي الذي تحرش به بسبب أخته ـ عشيقة " ريمون " ـ التي يصورها كامرأة مخادعة ومبتزَّة له . كما إنها تعود إليه مرَّة أخرى بخدعة يشاركه فيها " مارسو " بكتابة خطاب لها ، وعندما تكتشف الخدعة تصفعه ويضربها " ريمون " ضرباً مبرحاً . والغريب في كل هذه الأحداث أن " الغريب " لم يقدم أية تفسيرات تنير الجوانب المظلمة في هذه العلاقة بأطرافها الثلاث : العاشق / العاشقة / الأخ ، وليس الثالوث الخالد والشائع : العاشق / العاشقة / الزوج . الشخصية العربية هنا مبتزَّة للمال ، مهينة وخائفة ، والمنطق السائد المفسر للحدث منطق " ريمون " ، الذي تشير إليه الرواية أنه يتكسَّب من وراء النساء ، حيث يشير السرد علي لسان الراوي الذي يقول عندما يتأهب " ريمون " و " مارسو " و " ماري " للذهاب للشاطئ : " نظرت ورأيت مجموعة من العرب أمام حانوت التبغ " . وبعد تناول الغداء مع صاحب العشة وتنزههم علي الشاطئ : " لاحظت أن هناك علي الشاطئ ـ بعيداً عنا ـ اثنين من العرب يرتديان ثياباً زرقاء ويأتيان في اتجاهنا ، فنظرت إلي ريمون الذي قال لي : إنه هو " ، ناهيك عن المواجهة التي حدثت مع العربيين واللذين لقيا بالطبع هزيمة منكرة ، لم ينطق فيها أحدهما ولو بآهة توجع ، لولا سكين الأخ العربي التي جرحت " ريمون " جرحاً سطحياً يعقبه انسحاب العربيان . عند النبع يقول : " وجدنا العربيين يرقدان في هدوء ويبدو عليهما السعادة " ، وكان أحدهما ينفخ في قصبة قصيرة وتتردد نغمات ثلاث في الفراغ ، ويهدد " ريمون " بقتل غريمه ، ويأخذ " مارسو " المسدس منه حتى لا يتهور ، وينسحب العربيان مرَّة أخرى . وعندما يعودون للعشة لا يصعد معهم " مارسو " بل يستدير للشاطئ مرة أخرى ، ويمضي عليه بطريقة عبثية تحت لهيب الشمس الأحمر والوهج الحارق ، تقوده قدماه للنبع فيجد العربي وحيداً راقداً بظهره علي الأرض ، والذي ينهض واقفاً

واضعاً يده في جيبه لإخراج سكينه ، وامتدت يد " مارسو " في التو لمسدس " ريمون " الذي كان مازال يحتفظ به ، ومع التعب والشمس والعرق واللهب وضربات الشمس ووميض السكين الممدود في مواجهته ، والبريق الخاطف المنبعث منه الذي يحرق رموشه ويخترق عينيه ، تنطلق الرصاصات في مشهد الذروة الذي أشرنا إليه في صدر المقال ..

بعد القبض علي " مارسو " ، كان جل الموقوفين أيضاً من العرب الذين دهشوا لوجوده بينهم ، ورغم أنهم صمتوا عندما علموا قتله لعربي ، إلاَّ أنهم في المساء عرفُّوه كيف يطوي الحصيرة ليصنع وسادة ينام عليها . وعندما كانت تزوره " ماري " فيما بعد نرى مكان اللقاء والشبكة المعدنية الفاصلة والمساجين العرب في مواجهة ذويهم .

والسؤال : هل تعمد " كامو " رسم هذه الصورة للعربي ، أم أنها كانت نظرة المحتل السائدة لأصحاب الأرض ؟ ، عندما احتل الفرنسيون الجزائر قيل أن الجنرال " بوجو " قد انتصر علي " السكان المحليين "! ، وقيل عنهم أيضاً " المتوحشين "! . وربما كانت هذه النظرة لا تختلف كثيراً عن النظرة الاستعمارية للقبائل الأصلية من سكان أستراليا أو الهنود الحمر في أمريكا أو العرب في فلسطين . ورغم فلسفة " كامو" الوجودية الإنسانية ، وأفكاره عن الحرية والمبادئ العليا للإنسان ، فإنه انشطر كانشطار روايته " الغريب " عندما تناول القضية الجزائرية ، كما اختلت مثله العليا ، كان متناقضاً وهو يساعد بموهبته المقاومة الفرنسية في الحرب العالمية ولا يفعل نفس الشيء مع المقاومة الجزائرية التي اسماها " الأحداث الجزائرية " ، ورغم انتقاده للمستوطنين الفرنسيين من بني جلدته إزاء معاملتهم للعرب الذين اسماهم أيضاً " غير الأوروبيين " ، فإنه لم ير فيهم صورة المغتصب المحتل لأرض الغير ، وكذلك عندما دعا لـ " جزائر مسلمة " في إطار فرنسا الأوروبية ، وعندما عقد صداقاته مع من يتفقون مع أفكاره كالحركة الوطنية الجزائرية وزعيمها " عباس فرحات " الذي نادى بالاندماج مع فرنسا ، ولم ينجح مع " بن باديس " صاحب القصيدة المشهورة :

شعب الجزائر مسلم .. وإلي العرب ينتسب
من قال حاد عن أصله .. أو قال مات فقد كذب

لقد كان " كامو " ممزقاً بين وطنه الأم فرنسا ، والوطن الذي ولد وعاش علي أرضه وأحبه " الجزائر "، يقول : " مازلت أؤمن بالعدل ، لكنني أخشى علي سلامة والدتي التي لا زالت تعيش في الجزائر " . وفي أعماله الكاملة حذف المقالات التي تنتقد سلوك مستوطنيه الفرنسيين ، حتى أن كاتباً فرنسياً شهيراً هو " جان جاك بروشيه " قال عنه في كتابه " آلبير كامو ، فيلسوف الأقسام النهائية " أن " كامو " اتخذ موقفين متمايزين ومتناقضين في آن ، حيث أنه قبل الثورة كان يشجب في مقالاته تصرفات المستعمرين الفرنسيين ، وتعرض للطرد من عمله بسبب موقفه هذا ، لكن هذا الموقف تغير بعد اندلاع الثورة ، حيث أوضح " بروشيه " أن " آلبير كامو " قد تعاطف مع العرب الجزائريين فقط ضمن

المقياس الذي ظهروا فيه أغبياء ويمكن استغلالهم . ورغم أنه هو الذي جعل " مارسو " يطلق رصاصاته علي العربي عند النبع ، فإنه كان منزعجاً فيما بعد من الرصاصات التي انطلقت بين الجانبين ، وأسالت حمامات الدم ، وقدمت الجزائر مليوناً من الشهداء الجزائريين قرباناً للاستقلال . وعندما أبدع قصته " الضيف " ، أجمع النقاد أنها كانت تجسيداً حقيقياً لمأساته أمام المسألة الجزائرية : "عندما يعود المعلم " دارو " لمدرسته بعد أن طلب من ضيفه العربي - الذي سلَّمه إليه جندي فرنسي بالليل بغرض تسليمه للسلطات في الصباح - أن يختار بين طريقين : أحدهما يؤدي للسلطات والاعتقال ، والآخر يؤدي للحرية ، فيختار الضيف طريق السلطات ، لكنه " دارو " فيما بعد يجد علي السبورة العبارة التي تخاطبه وتلخص مأساته :

" لقد سلمت أخانا للبوليس .. وسوف تدفع الثمن " .

لقد جسَّدت إبداعاته الصورة الجميلة للجزائر / المكان ، خاصة الشمس القوية المتوهجة والغابات الكثيفة وريف الفقراء والبحر الذي كان يعشقه .

قدم " كامو " للمكتبة العديد من الأعمال الخالدة غير الغريب مثل : " الطاعون " التي تدور أحداثها في وهران و" الثائر " و " أسطورة سيزيف " ، بالإضافة لأعماله المسرحية المؤلفة أو المقتبسة ، والتي أهلته للحصول علي جائزة نوبل 1957 م ، حتى لقي حتفه في حادث سيارة في عام 1960 م أثناء عودته لباريس مع صديقه وناشر كتبه " ميشيل جاليمار " .

ورغم اختلاف الظروف بين البلاد العربية ، فإنه كان هناك دائماً ، أو لبعض الوقت ، كتَّاباً آخرين مثل " كامو " ، عاشوا بيننا وكتبوا عنا ، أو بالأحرى عن بلادنا بعيون أجنبية ، لم تر من شخوصنا إلاَّ الزوائد والحواشي التي تلزم لاستكمال الصورة القصصية ، نذكر منهم علي سبيل المثال " لورانس داريل " في " رباعية الإسكندرية " التي لا تقل شهرة عن " الغريب " ، فالشخوص فيها من الأجانب والمتمصِّرين ومن فئات الوافدين ، لم يقترب قلمه من سكان الإسكندرية الأصليين وأصحابها الذين يصنعون زخم حياتها اليومية ، وكأنها لم تكن مدينة مصرية أبداً ، بل مدينة إغريقية .

وحصلت الجزائر علي استقلالها ، لكنها ظلَّت تعاني لفترات من عدم الاستقرار ، والسكين العربي في " الغريب " ، والذي خطف بوميضه وبريقه اللاَّمع عيني " مارسو " عند النبع ، انشطر لآلاف السكاكين المعمدة بالخرافة والجهل ، والتي راحت تجز رقاب أبناء الوطن الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ .

يوسف إدريس

أ ـ التحول في قصتين ليوسف إدريس وكافكا
ب ـ ما الذي يتبقى من يوسف إدريس ؟

أـ " التحـول "
في قصتين لـ " كافـكا " و " يوسف إدريس "

في قصتي : " عن الرجل والنملة " لـ " يوسف إدريس " (1927 - 1991) و " التحول " أو " المسخ " في ترجمات أخرى لـ " فرانز كافكا " Fran Kafka (1883 - 1924) ، ثمة تغير جوهري وتحول كبير يطرأ قسراً علي الشخصية المحورية في كلا القصتين الشهيرتين في إبداع كل منهما . هذا التغير والتحول إنما يحدث بسطوة فوقية ، وقوة قاهرة وقادرة بالدرجة التي لا تملك إزاءها الشخصية المحبطة ـ بشتى عوامل الظلم الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي ـ أن تفعل شيئاً سوى الاستسلام لهذا القدر العاتي ، وتتبدى أسباب المقاومة لدى هذه الشخصية كفعل إنساني مضاد ، إمَّا في إرهاصات ضعيفة وعاجزة عند بطل " كافكا " ، أو في استسلام الذهول القمعي عند بطل " إدريس " ، ويؤدي ـ هذا وذاك ـ في أن يمضي كلاهما حثيثاً وبحتمية لا رجوع فيها صوب الموت المحقق ، وفي نفس الوقت سوف تخلف أسباب هذا الموت / الانتحار ، ومدلول معطياته من خلال التفاصيل الدقيقة للقص ، أثراً سلبياً مقصوداً علي المتلقي ، هو بالتأكيد مزيجاً من الحزن والمرارة والألم .

والسؤال :هل كان الكاتبان الكبيران ـ " إدريس " و " كافكا " ـ يقصدان الوصول بالقارئ حتى هذا التأثير ؟ ، وثمة سؤال آخر أيضاً يفرض نفسه ـ باعتبار أن " كافكا " هو الأسبق ـ وهو : هل تأثر " إدريس " بالأجواء الكافكاوية عندما شرع في كتابة " عن الرجل والنملة " ؟ . ولأن الحقيقة التي لا جدال فيها تقول أن " كافكا " بصفة خاصة ، مع زمرة الكتَّاب الوجوديين الآخرين بصفة عامة : " البير كامو " و " سارتر " و " بيكيت " وغيرهم ، قد تركوا أثراً في أعمال الكثيرين من الكتَّاب العرب الذين تأثروا بهم مثل " زكريا تامر " و " يوسف الصائغ " و" غادة السمان " و " إبراهيم جبرا " و" نبيه الصعيدي " وغيرهم .

لقد قرأت " عن الرجل والنملة " أول ما قرأت في مجلة " الدوحة " القطرية إبَّان صدورها عندما كان الناقد الكبير " رجاء النقَّاش " يرأس تحريرها ، وذلك قبل أن ينشرها " إدريس " في مجموعته القصصية " أنا سلطان قانون الوجود " (1980) ، أمَّا " التحول " التي قرأتها مترجمة في الستينات من القرن الماضي ، فقد كتبها " كافكا " عام (1916) في السياق العام الذي كان يحكم كتاباته متعددة المضامين والرؤى ، والتي كان يحمل إيَّاها روح شخصيته الخائفة والمترددة والمستلبة ، تلك الروح التي تناصب المجتمع العداء لأسباب عدَّة : علاقته المتردية بأبيه بسبب ظلمه لعمال مؤسسته ، أهل موطنه التشيك ـ كان تشيكي المولد ـ يرونه المانياً كونه يتحدث ويكتب بالألمانية ، والألمان الذين

يرونه يهودياً ، حتى أمه التي كان يرى أن عائلتها قد خلفت في نفسه عوامل الغدر والجبن ، وكان يقول عن حياته : " إنها لحياة مزدوجة رهيبة حقاً ، لا أظن أن هناك مخرجاً منها سوى الجنون " .
في السطر الأول من " التحول يصدم " كافكا " القارئ بهذا التحول الرهيب حيث يقول : " استيقظ جريجور سامسا ذات صباح بعد أحلام مزعجة ، فوجد نفسه قد تحول في فراشِه إلي حشرة هائلة الحجم " . " جريجور " ، هذا العامل البسيط ، البائس بوظيفته التي تجبره علي الاستيقاظ مبكراً ليلحق بقطاراته كي يجوب المدن بائعاً متجولاً ، في شقاء يومي متكرر ، بالكاد يحقق له دخلاً يستطيع به أن يعول أسرته . ويجري " كافكا " هذا الحدث غير الواقعي ، وغير محتمل الوقوع ، في مجاري واقعية تماماً ، موهماً القارئ بصدق هذا الكابوس ، والذي تمنَّى " جريجور/ المتحول " أن يكون هذا مجرد حلماً مزعجاً سرعان ما يستيقظ منه ، لكنه أيقن بتوالي الأحداث استحالة أمنياته . عندما ترتعش أطرافه المفصلية الحشرية في محاولاته اليائسة للنهوض من فراشه حيث تسبب له الألم ، وعندما يضطر للرد علي أسرته القلقة بسبب تأخره في النوم علي حالته الجديدة ، ويصافح مسمعيه هذا الصوت الرفيع الغريب الذي هو بالتأكيد صوته غير البشري ، ولا تقتصر مأساة هذا البائس فيما بعد في عجزه عن المواءمة مع هذا التحول القدري ، بل تتعداه إلي موقف الأسرة السلبي منه . فيما عدا أخته التي كانت تؤثره في محنته . حين تبتعد عنه مع مرور الوقت وتفاقم أزمته الوجودية ، ثم هي تدفعه للاختفاء بعيداً عن الأعين ، ثم وهي تبلور مشاعرها لمشاعر باردة وغير إنسانية بالمرَّة ، برغبة جماعية في التخلص منه ، حتى ولو كان الثمن هو الموت ، فالارتباط المادي الذي يربطهم به قد انقطع صبيحة التحول الحشري مع توقفه عن العمل ، بالفعل يموت " جريجور " ، ماذا يمكنه أن يفعل غير الموت ؟ ، بعد أن أرهق " كافكا " القارئ بالتفصيلات الحياتية اليومية الكابوسية ، التي تؤكد أن مجرد البقاء علي هذه الصورة أمراً مرعباً وغير محتمل ، وأن الانتحار هو الحل الوحيد الممكن . يقول " روجيه جارودي " عن " كافكا " وعالمه السوداوي أنه خلق هذا العالم بمواد عالمنا مع إعادة ترتيبها وفقاً لقوانين أخرى تماماً كما فعل الرسامون التكعيبيون في نفس الفترة .
لكن " يوسف إدريس " الذي ولد لأسرة بسيطة ، جل أفرادها من الفلاَّحين ، في قرية البيروم بالشرقية في مصر تأثر كثيراً بجدته ، مع غياب أبيه في العمل خارج القرية وجمود أمه العاطفي تجاهه ، كما عرف السياسة منذ طفولته عندما سمع اسم " مصر " يتردد علي أفواه المتظاهرين خارج أسوار مدرسته الابتدائية ، وفي كلية الطب انخرط في العمل الطلابي السياسي ومجلات الحائط . هذا الوعي السياسي الذي تكون في العصر الملكي ، تبلور نموه مع وعيه الفني بعد قيام ثورة يوليو (1952) ، ورغم أنه كتب ونشر كثير من القصص قبل الثورة إلاَّ أنه لم يصدر مجموعته الأولى " أرخص ليالي " إلاَّ في عام (1954) ، كما أنه عاش فيما بعد مراحل التطور الاجتماعي السريع للحياة المصرية الذي صاحبته كثير من المآزق والمشاكل ، وحاول من خلال إبداعاته في القصة القصيرة والرواية

والمسرح أن يعبر بصدق عن هذه الفترة التي اختلطت فيها المنجزات مع الانتكاسات ، فالثورة التي حررت الوطن من المحتل ، واهتمت اهتماماً عظيماً بالتعليم والصحة ، وأصدرت قانون الإصلاح الزراعي وأنشأت السد العالي ، وخاضت غمار معارك متعددة مع قوى الاستعمار والرأسمالية والإقطاع ، هي نفسها الثورة التي فتحت أبواب المعتقلات والسجون لقوى المعارضة من كافة القوى السياسية ، وهي التي ألغت الأحزاب واختزلتها في حزب واحد هو " الاتحاد الاشتراكي العربي " وكممت الأفواه وخسرت في النهاية حرب 1967 مع عدو لا يرحم بمؤامرة دولية استهدفت في الأساس تصفية مشروعها الثوري ، ومع رحيل " عبد الناصر " تبدلت القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تراجع متقهقر ومضاد ، وتمكن " إدريس " من خلال القصة القصيرة أن يكون صادقاً وهو يعري الواقع بقلمه ، وأن يكتسب قاعدة عريضة من القراء عكس أقرانه من الروَّاد . لهذا كان التحول في قصته " عن الرجل والنملة " أخف وقعاً وأقل وطأة عنه لدى " كافكا " ، لم يكن التحول مادياً في كيان الشخصية ، كما لم يكن صادماً مع السطور الأولى ، لكنه جاء بعد أن هيأت القصة الأجواء لحدوثه ، فالمكان هو المعتقل ، والراوي وصديقه ـ كلاهما طبيب ـ معتقلان سياسيان في زنزانة واحدة ، والرجل الذي أُلقي به معهما بعد تمام المساء ظلَّ يعاني في صمت ولا يستجيب لهما ، وهو يتقدم بخطى حثيثة نحو الموت ، هما الطبيبان اللذان يعرفان معنى هذه الصفرة المتكاثرة علي وجهه ، ومعنى الحدقتين المتسعتين المفتوحتين اللتين تمعنان النظر في الفراغ ، وتجدي محاولاتهما عندما يتمكنا من انتزاع الكلمات أخيراً من بين شفتيه ، حينما نطق بما حدث له : " أوحش شئ علي وجه الأرض .. نيموني مع نملة !! " .

ويعرفان أن هذا المعتقل عمدة قرية ، ويقدران من مظهره وعلبة سجائره غالية الثمن حيثية مكانته بين قومه ، عمدة من العمد الحقيقيين الذين يفتحون دورهم لمواطنيهم ، ويقودونهم بالحكمة والخبرة لبر الآمان ، لقد اعتقل عن طريق الخطأ ، وزبانية التعذيب لا يكتفون بعذاب تكسير البازلت للمعتقلين تحت عين الشمس ، ولا بحمله في المقاطف لمسافات طويلة تنوء بها الأجسام ، لكن لابد أن تتفتق أذهانهم المريضة عن وسائل أخرى جديدة للتعذيب حتى ولو كانت مجنونة ، فهذا الضابط الذي ينادي العمدة طالباً منه أن يحضر نملة ، بل يأمره بالعودة بنملة أنثى ! ، من هذا الذي يستطيع أن يميز الأنوثة عن الذكورة في مجتمع النمل ؟ ، ويرضخ العمدة للأمر تحت وطأة أبطال التعذيب ، الذين يقفون خلف ظهره بالشوم والسياط ، يسومونه العذاب إذا تقاعس ومعه ثلة من التلاميذ الصغار المعتقلين أيضاً ، الذين ينولهم من الضرب نصيب ، فيطوله الألم لصياحهم كالكتاكيت ، وكان يتمنى هو الآخر ، مثلما تمنى " جريجور " ، أن يقف الأمر عند هذا الحد ، لكن الضابط يستمرئ اللعبة ، والأمر المذهل يسقط علي يافوخ العمدة وبدنه العاري بعد أن تجرد من كل ملابسه ، طالباً منه أن ينام مع هذه النملة ويجامعها ، ولا تنجح محاولاته في إثناء الضابط عن طلبه ، ولا يجد بداً أيضاً ـ كـ " جريجور " أمام القوة القاهرة ـ سوى الانسياق في اتجاه واحد ، وكان عليه وهو يمضي

مكرهاً ألاَّ يمثل أو يخدع ، كان عليه أن يخال أنثى النمل وقد اضطجعت مستجيبة له ، وكان عليه لكي يندمج ويعيش لحظة النشوى الكبرى أن يتصاغر ويتضاءل ليكون في حضرة النملة / الأنثى ، أن يكون العمدة ذكراً للنمل ، وعندما تحقق هذا التحول المعنوي المهين سقط العمدة سقوطاً مدوياً ، وحملوه للمستشفى ، ومن ثم أعادوه للمعتقل فلم يكن هناك إلاَّ طريق واحد هو طريق الموت . وكأن " إدريس " و" كافكا " يتفقان في أن كل وسائل التطرف في الظلم والقهر والعبودية من الإنسان لأخيه الإنسان ، يمكن أن يصحبها ، ولابد أن يصحبها ، هذا التحول الكابوسي الرهيب ، الذي قد تختلف ألوانه البشعة ، لكنه بالتأكيد يتوحد في نهايته المميتة .

الأجواء التي عاشها " كافكا " تختلف بالقطع عن الأجواء التي عاشها " إدريس " وربما كان هذا سبباً لتمايز " التحول " في القصتين ، لقد أضمر " كافكا " العداء للمجتمع ، وهو الذي أوصى صديقه " ماكس برود " بحرق كتبه بعد رحيله والذي لم يفعل ، أمَّا " إدريس " فقد أحب الناس الذين كتب عنهم ولم يعتزل المجتمع بل كان مشاركاً فيه بحيوية ، ورغم المرض والاعتقال والتصادم مع قوى كثيرة اختلفت معه ، إلاَّ أنه حاول ونجح في كتابة قصة مصرية جداً شكلاً ومضموناً .

بقي أن نؤكد علي أن الفكرة الأساسية التي ارتكز عليها " إدريس " في كتابته قصة " عن الرجل والنملة " لم تكن متأثرةً بأعمال " كافكا " بأي حال من الأحوال ، إنما ارتكزت علي مقولة شعبية مصرية جداً ، تتردد لحظة الغضب علي أفواه العامة في قاع المجتمع المصري ، حيث يحلو له اختيار شخوصه ونماذجه وأبطاله من هذا القاع الشعبي ، وذلك عندما يضمر أحدٌ من الناس شراً بآخر ، فأنه يُقسم قسماً من موقع السطوة والقوة ، قاصداً به التصغير والتحقير من شأن الآخر ، أن : " ينومه مع نملة " .

ولقد استثمر " يوسف إدريس "هذه " التيمة الشعبية " في صنع قصة بارعة ، زاوج فيها كالعادة في معظم كتاباته بين الجنس والسياسة ، وعرَّى فيها جانباً مهماً من واقع المجتمع المصري في تلك اللحظة من هذا الزمان .

ب- ما الذي يتبقَّى من يوسف إدريس ؟ .. مـرَّة أخـرى

تحت هذا العنوان / السؤال ، بجريدة " الراية " القطرية ـ الصادرة في الخميس 23 ذو الحجة 1422 الموافق 7- 3 - 2002 م ، حاول الأستاذ جهاد فاضل الإجابة علي هذا التساؤل ، مفترضاً أنه سؤال مشروع حان وقت طرحه ـ كما يرى ـ علي المجتمع الثقافي ، للخلوص منه علي إجابة ، تقود بالضرورة للإجابة علي سؤال آخر ـ يرى أنه ملح أيضاً ـ وهو : هل تنهض أسطورة يوسف إدريس علي أساس متين ؟ ..

ولأن يوسف إدريس كان تصادمياً ومستفزاً ، فإن ما يكتب عن بالتبعية سيكون كذلك ، وأعترف أن المقال استفزني للكتابة ، وليأذن لي الأستاذ جهاد فاضل بتناول الأفكار التي قد نتفق أو نختلف حولها بطبيعة الحال ، خصوصاً أن هذا الحال هو حال يوسف إدريس .

فعن سبب اختيار هذا الوقت بالذات ، أوضح المقال أن فترة تأبين يوسف إدريس (ذكر حسنات المتوفى لدرجة المبالغة) قد انتهت الآن " بعد أن أقفلت سرادقات العزاء ، وبات من المتوجب فتح تركة أديبنا الكبير " ، لمعرفة ما له وما عليه ، وبخاصة ماذا يبقى منها بلغة النقد والأدب . هذه الفترة التأبينية التي أعقبت وفاته في أغسطس 1991 وحتى الآن قد طالت أكثر من اللازم ، هذا يقول المقال موضحاً : " ومع أن فترة زمنية قد انقضت علي رحيل يوسف إدريس ، وبات من المفترض أن تظهر بحوث جادة ورصينة حوله وحول أعماله ، فإن أكثر مما لا يزال يكتب هو أقرب إلي ما يمكن وضعه في باب التأبين أو التكريم أكثر مما يمكن اعتباره بحوثاً ودراسات " . والمتأمل لهذا الرأي علي عموميته لابد أن يعتوره الشك لأسباب كثيرة ، كيف يمكن لفترة تأبين أن تمتد طوال هذه السنوات الكثار " أكثر من عشر سنوات " ، حتى ولو كان المؤبن أديب بحجم يوسف إدريس نفسه ؟ ، الذي تتناساه حتى المؤسسات الثقافية ، ولا تحيي ذكراه بالصورة التي تليق به كمبدع كبير ، ورغم كثرة المسابقات والجوائز التي تخرج من هنا أو هناك ، بأسماء وصور شتَّى في كافة بقاع الوطن العربي الكبير ، في القصة أو الرواية أو المسرح ، فإنه ولا واحدة منها تحمل اسم هذا المبدع الكبير . والتعميم بخصوص الدراسات التي تناولته وتناولت أعماله ، والتي ينقصها الجدَّة والعلمية خطأ ، لأن هذا وإن انطبق علي البعض ، فإنه لا يجوز بأي حال من الأحوال أن نقول به عن دراسات وبحوث ومقالات نقدية جادة سطرتها أسماء من قبيل : محمد مندور ورشاد رشدي ولويس عوض وغالي شكري وشكري عيَّاد وعبد القادر القط والسعدي فرهود ورمسيس يونان وغيرهم الكثير في مصر والعالم العربي والخارجي .

وتحدث المقال أيضاً عن جائزة نوبل ، وعندما تأتي سيرة هذه الجائزة ، فلا بد أن تقترن باسم نجيب محفوظ الذي حصل عليها ويوسف إدريس الذي لم يحصل عليها ، وتختزل المسألة برمتها في بضع كلمات غاضبة تنسب إلي يوسف إدريس ورأيه في أدب محفوظ ، مع أنه هو الذي أثنى علي هذا الأدب من قبل في مرَّات عديدة ، وهو الذي صرح برأيه في جائزة وقبل حصول محفوظ عليها بنحو العام عندما قال : " تعال إلي جائزة نوبل مثلاً ، فهي ترى في أية كتابة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية أو يهودية إسرائيلية أو روسية منشقة أعمالاً عظيمة تستحق التقدير العالمي .. أمَّا الكتابة العربية فلا " . وهو الذي قال أيضاً : " كذلك الإلحاح علي ضرورة أن ينال أديب عربي جائزة نوبل ، فإنه يعني أننا نحتاج إلي اعتراف الغرب بنا ، وهذه كارثة ، إن الدول العربية تستطيع أن تنشئ جائزة أكبر من جائزة نوبل ، وتهديها سنوياً لأكبر أديب في العالم سواء كان عربياً أو لم يكن " . ويقرر مؤكداً بصريح العبارة : " إنني أنا يوسف إدريس اعتقد أن الأدب العربي هو الحركة الأدبية الأولى في العالم قبل أدب أمريكا اللاتينية ، هناك كتَّاب عظام في أمريكا اللاتينية أما الحركة الأدبية فهي حركة الأدب العربي ، إنها أعظم حركة في العالم الآن ، أقولها بمنتهى الإحساس بالمسؤولية من خلال قراءاتي ورحلاتي واشتراكي في ندوات متخصصة عالمية . المشكلة لدى البعض أن الغرب لا يعترف لنا بذلك ، حسناً ، ولكن البعض الآخر يساعد الغرب علي ذلك " . والمطلع علي أراء يوسف إدريس هذه أو غيرها يصاب بلا شك بالحيرة ، عندما يقرأ المقال وهو يصف تكالبه وتهافته علي الجائزة ، وهو يستجدي ويتوسل بالرجاء أعضاء الأكاديمية السويدية ولجنة الجائزة : " واستخدم وسائل اتصال أخرى غير البرقيات منها الهاتف والفاكس والبريد العادي والمضمون ، حتى أصبح اسمه فعلاً علي لائحة المرشحين للجائزة ، وكاد برأي البعض ينجح لولا تقدم سواه عليه في اللحظة الأخيرة ، وكان هذا السوي زميله وصديقه نجيب محفوظ " . هكذا يقول المقال ، وإن صح هذا فإنني أدعو " كل من هبَّ ودبَّ في الأدب " أن يلجأ لذات الوسيلة ، بل يضيف إليها التقنيات الأحدث كـ " النت " و " الإيميل " وغيرهما ، لعلَّ وعسى . وهكذا ، ودون أن نعرف سوى الآن ، نكتشف فجأة أن يوسف إدريس رجل مزدوج الشخصية ومنافق خطير ، يلعب علي كل الحبال ، عملاً بالمثل الشعبي " اللّي تغلبُّه .. العبُّه " . ودليل ذلك كما يقول المقال : أنه رغم حملاته علي الصهيونية والدوائر الغربية المشبوهة ، فإنه كان يفتح لهم بابه ، بل يحرص علي خطب ودّهم ، طبعاً كل هذا من أجل نوبل . ويأتي التناقض عندما يذكر المقال لاحقاً أن اللجنة عرضت عليه أن يقتسم الجائزة مع كاتب يهودي ولكنه رفض العرض . والسؤال الذي يفرض نفسه بلا إجابة من المقال : لماذا رفض طالما هو الذي يلهث كل هذا اللهاث وراءها ؟! ..

أمَّا الملاحظة الجوهرية التي وردت بالمقال وهي أن يوسف إدريس قدم للأدب من الطب ولم يكن له عدَّة أدبية ، وأن لغته ضعيفة وغير متمكن من أساليب الأدب والعرب في الكتابة ، أميَل للهجة العامية منها للفصحى أو أساليب الكتابة الرفيعة . وهذه الملاحظة ليست جوهرية بالشكل الكافي إذا لم تزوَّد ببعض الحقائق التي

يعرفها الجميع عن يوسف إدريس ، أهمها أن إدريس دخل عالم لأدب من باب السياسة أولاً والطب ثانياً ، فهو لم يخطط لأن يكون كاتباً بالمرَّة ، لكنه كان زعيم طلابياً ، وشغلته السياسة ، وكان انتماؤه للحركة الشعبية المصدر الأول للإلهام الذي حسم فيما بعد بالكتابة . والحقيقة أن السياسة جرَّت عليه كثير من المتاعب ، بل قادته للسجن بين عامي 1954 و 1955 ، كما أن معاركه المختلفة جعلته في كثير من الأحيان مهدداً في حياته ومعيشته ، وكلنا نذكر كيف اشتعلت المساجد غضباً عندما حاجج الشيخ الشعراوي رحمه الله ، بل وحلل بعض المهووسين إهدار دمه . ثم كانت معركته الشهيرة مع وزير الإعلام الراحل محمد عبد الحميد رضوان عندما وصفه بأنه يكتب وهو مخمور . ثم كان كتابه " البحث عن السادات " الذي قاده مع محمد حسنين هيكل صاحب كتاب " خريف الغضب " للمحاكمة أمام المجلس الأعلى للصحافة . ولقد عُرف عن إدريس تنقله في شبابه بين التيارات السياسية والفكرية المختلفة كالأخوان المسلمين والوفد وغيرهما . لكنه لم يستقر الفترة الأطول إلاَّ بين صفوف اليسار ، وحسب اعتقادي أنه وجد لديهم ما لم يجده لدى الآخرين ، الإخوان كان لديهم خطابهم الديني ، والوفد كان مشغولاً بمسألة جلاء الإنجليز عن مصر ، أما اليسار ، وكمكون طبيعي لنظام خلاياه ، كان يهتم بالتثقيف ، ولهذا لم يكن غريباً أن ينضم عدد كبير من الكتَّاب والأدباء لصفوف اليسار . لكن يوسف إدريس ـ غير المبرمج ـ هو الذي انتقد اليسار بحدَّة ، وكانت روايته " البيضاء " موضع اتهام من رفاقه الذين شككوا في انتمائه إليهم . وأخذ عليه البعض هذا التقلب والتحول الذي وصل لحد الاتهام . والسؤال الذي يطرح نفسه : هل يتساوى هذا المبدع العبقري ، بمزاجه الشخصي وحساسيته ومكوناته الداخلية ، مع أي شخص آخر عادي ؟! .. ماذا نقول إذن عن همنجواي أو توليستوي أو دوستويفسكي أو إميل زولا أو بيكاسو أو فان جوخ أو خوسيه ميلا أو غيرهم من عباقرة الفن والأدب في العالم ..

ولعل توقفه عن الإبداع لسنوات طويلة في أخريات حياته له من الأسباب الداخلية أو الخارجية التي تحتاج حقاً لبحث متخصص ، لكنني اعتقد أن ما قدمه في سنواته الأولى في القصة والمسرح والرواية يكفيه تماماً ، لأنه لم يكن بأي حال من الأحوال إضافة كميَّة ، بقدر ما كان إبداعاً متميزاً ومتفرداً .

أمَّا مسألة " العدَّة الأدبية الناقصة " ربما استمدت جذورها ، وأخذت حجمها الكبير ، من مقولة طه حسين في تقديمه لمجموعة " جمهورية فرحات " ـ يناير 1956 ـ عندما قال : " أتمنى عليه أن يرفق باللغة العربية ويبسط سلطانها شيئاً ما علي أشخاصه حين يقص " . ونسي البعض أن طه حسين نفسه هو الذي قال أيضاً عن إدريس : " إن هذا الطبيب الشاب يملك سليقة لغوية يُحسد عليها " . بالطبع كما نعرف لم يأخذ يوسف إدريس بنصيحة طه حسين وإلاَّ ما كان هو إدريس الذي نعرف ، والذي شكلت كتاباته علامةً فارقةً ومغايرةً من قبل ومن بعد عمَّا هو سائد . اللغة لديه تحررت من قيودها ، تحررت من الصوت والقالب والجسد والعقل والفكر الواحد ، ونزلت من عليائها كي تتعدد وتتشكل حسب الكلام ودلالاته ، وحسب الحدث والشخصية القصصية ، وباعتبار العامية إحدى روافد

الفصحى وابنةً شرعيةً لها .. يقول إدريس : " لم أكن استخدم المفردات أو التراكيب العامية اعتباطاً ، وإنما توظيفاً للموسيقى الشعبية ، فقد غيرتُ موسيقى العربية الفصحى من كلاسيكية طه حسين إلي الموسيقى الشعبية المصرية أو الفولكلور الموسيقي الشعبي " . وهكذا ظلَّ إدريس متهماً رغم أن " القصة الإدريسية " سادت فيما بعد وانتشرت بين الأجيال اللاحقة خاصةً جيل الستينيات ، ولم يطاوله أحد أو يتجاوزه فيها ، وبخاصة قصة الريف التي برع فيها ، اللَّهم إلاَّ في القليل النادر مثل بعض كتابات خيري شلبي أو عبد الحكيم قاسم .

ويتهم المقال يوسف إدريس بالتكالب علي المال في أخريات حياته ، مستشهداً برفضه مناصفة جائزة " صدَّام للآداب عام 1987 " مع الروائي جبرا إبراهيم جبرا ، مع استخدامه أيضاً نفس الأساليب السابقة مع جائزة نوبل " الخطابات والفاكسات والتليفونات " ، وأنهم أيضاً في بغداد تأثروا بهذه الوسائل وأرسلوا إليه المبلغ كاملاً ، مع أن السبب المعلن علي لسانه أوضح أنه وهو القامة الشامخة في الأدب ، يأبى علي نفسه اقتسام جائزة مع أديب آخر ، مع كل الاحترام لجبرا ، لكن المقال يقول : " ولكثرة البرقيات التي أرسلها دفع له المبلغ الذي طلبه ليعود ويعلن فيما بعد تبرؤه من الجائزة أصلا وفصلاً. " مع إن مبررات التبرؤ من الجائزة هذه المرَّة لا تحتاج لتبرير ، فعلي المستوى السياسي العربي كان الرفض للغزو العراقي للكويت ، وعلي المستوى الشخصي الإنساني كان ولده الأكبر يعمل في الكويت ، ولقد عاش مثل أي أب لحظات عصيبة يتقصى أخبار ولده الغائب ، والغريب في الأمر أن البعض وجدها فرصة للهجوم عليه ، وطالبوه بإعادة قيمة الجائزة نقداً إلي بغداد !! ..

ما الذي يتبقى من يوسف إدريس ؟ .

نعم ، السؤال مشروع ومطلوب ، وبرغم آلاف الصفحات التي كتبت عنه ، ما زالت حياته وكتاباته مادة خصبة لكي يكتب عنها آلاف من الصفحات الأخرى ، ومنها بالطبع دعوة المقال لكتابة سيرته بأقلام أصدقائه ومعاصريه . واستكمال ما كتبه هو عن نفسه أو عن أسرته البسيطة ، أمه وأبيه وجدته الفقيرة وأبناء قريته البيروم ، من خلال قصصه ومقالاته وأحاديثه الكثيرة ، بصراحة ودون خجل أو تجميل .

عندما رحل يوسف إدريس كانت له أمنية ، كتبت عنها بصحيفة المساء في 26 - 7 - 1992 تحت عنوان " الأمنية الأخيرة " ، ولعلها تدخل ضمن كتابات التأبين التي أشار إليها المقال :

(عام من الغياب علي رحيل يوسف إدريس ، اختطفه الموت بغتةً وهو بعيداً عن أرض الوطن الذي أحبه وعشقه . وعندما عاد جثمانه محمولاً لقريته " البيروم " لم يدفن في المقبرة التي أعدت علي عجل في الركن الشرقي لحديقة منزله ، كان الأمر محيراً ، ألوف من المشيعين ، جنود الأمن المركزي ، أين ترخيص الجهات المختصة بالدفن ؟! ، بدا الأمر كمسرحية عبثية ، كان بإمكانه - لو كان حياً - أن يشيد بناءها بقلمه الساخر ، لكن الجسد الذي أتعبته كثرة المعارك اتجه صوب مدافن القرية ليستريح ويريح .

قالت أسرته إنه قد أوصى بذلك ، بل إنه قد شرع في التنفيذ لكن القدر لم يمهله :
" مدفن ومكتبة ثقافية أمام منزله تضم تراثه ومقتنياته "
عام من الغياب وأخاله ما زال حاضراً يملأ حياتنا الثقافية صخباً وضجيجاً ، يتحدث عن مشاريع لمسرحيات لم تكتمل ، وقصص لم يجد الوقت ليكتبها :
" كيف أكتب وكل هذا يحدث ؟ .. ألا ترى يا أخي ؟ .. من يتصور ؟ ..الاتحاد السوفيتي تتفكك أوصاله والشيوعية تدفن في مقابر أوروبا الشرقية .. و .. و .."
ماذا كنت ستكتب في مفكرتك ؟ ..
لقد جفَّت أقلامك وطويت صحفك أما أمنيتك الأخيرة فلم تتحقق حتى الآن !!) .
أدباء الشرقية " موطن يوسف إدريس " كانوا قد أعدُّوا العدَّة لإقامة مؤتمرهم الثاني ـ علي اعتبار أن المؤتمر الأول الذي عقد بالشرقية في عام 1969 كان بعنوان " مؤتمر الأدباء الشبان " ـ والطريف أن يوسف إدريس ونجيب محفوظ رفضا المشاركة فيه أو الإشراف عليه ، وكانت حجتهم أن السلطات بعد نكسة يونيو 1967 أرادت إزاحتهم من الساحة علي اعتبار أن الهزيمة كانت هزيمة جيل وليس هزيمة سلطة ، وأنهما من هذا الجيل المهزوم .
المؤتمر الثاني الذي عقد في أبريل 2002 م خصص أحد محاوره عن أدب يوسف إدريس ، كما أوصت الأمانة بتوجيه الدعوة للفنان فاروق حسني لافتتاح مكتبة ومتحف يوسف إدريس ، التي اكتمل بناؤها من قبل وزارة الثقافة في قريته ، مع افتتاح أعمال المؤتمر ، الذي يرأسه الدكتور محمد أبو الأنوار ، لكنها افتتحت فيما بعد . ولم تتحمس الأمانة لطرح اسم إدريس للتكريم بحجة أن الاسم الذي كُرِّم عالمياً ليس بحاجة للتكريم في هذا المؤتمر الإقليمي الصغير ، وهذا ما دفعني للكتابة بصحيفة " المساء " في فبراير 2002 ، ربما هي من قبيل الكتابة التأبينية أيضاً :

(صوت المظاهرة الهادر يدوي في الفضاء ، تسلل الطفل الصغير ، تسلق الباب الحديدي للمدرسة بخفة ، رأى أصحاب القمصان الزرقاء والخضراء يجأرون هاتفين باسم " مصر " ، ظل مستغرقاً للحظات وهو يستمع لهذا الاسم الساحر لأول مرة في حياته ، وعندما أحاطته الذراعان القويتان لعم " رجب " الفراش ، وحملته عنوة ، وجد نفسه محاطاً بمربع الطابور المدرسي ، والناظر التركي يرمقه بعينين ناريتين ، ويبرم شاربه الكث ، ويؤرجح خيزرانته أمام عينيه الطفلتين . وكانت علقة رهيبة نزلت ببدنه النحيل بست وثلاثين ضربة ، وظلت عالقة بذاكرته طوال عمره كلما تحمس لاسم مصر ، فيتلقى الضربات بشكل أو بآخر ، اعتلت الصحة وعطب القلب وتلفت الأعصاب ، لكنه ظل يهدينا عصارة روحه فناً قصصياً جميلاً ..
كان هذا هو يوسف إدريس ..
لقد تذكرته ونحن نطرح اسمه للتكريم علي أمانة مؤتمر الشرقية الأدبي المزمع عقده في إبريل القادم ، واعترض البعض علي أساس أن اسمه أكبر من هذا المؤتمر الصغير ، أيضاً عندما دُعيت للتحدث عنه في قصر ثقافة الزقازيق

واحترت ، ماذا يمكنني أن أقوله عن هذا العبقري التصادمي ، الذي ظل يتصادم دوماً مع الواقع من أجل مصر ؟ ، لكنني كنت أعرف يقيناً أنه يعرف أنه منذور ، أن يظل صاحياً عندما ينام الآخرون ، وأن يحلم عندما يفقدون القدرة علي الحلم ، وألاَّ يبيع قلمه ـ مهما كانت المغريات ـ في سوق النخاسة) .

قراءة في رواية " الهماميل "
لـ " مصطفى نصر " *

الهماميل !! ،
ماذا تعني الهماميل هذه ؟! ..
سالت أقراني ممن هم يماثلونني في العمر هذا السؤال أكثر من مرَّة .. لا مجيب .
أو بالأحرى لم أجد إجابة شافية وصادقة .
وبرغم أنني ريفي قح ، ولدت في قرية صغيرة ، شببت علي حوائطها الطينية ، تطيبت بماء نيلها ، بلبطت علي شاطئ ترعتها ، وطوحت الأحجار صوب سبائط نخيلها ، وعابثت أطفالها ، و ..
إلاَّ أن الكلمة " الهماميل " بدت غريبة علي مسمعي ، ولمَّا توجهت بسؤالي للعم " أبو عطية " ـ وهو بالمناسبة فلاَّح عجوز ـ انفرجت شفتاه الناتئتان عن فم خال من الأسنان وضحك قائلاً :
(ألا تذكر الساقية أم قواديس التي كانت تحت ذكر النخيل القابع فوق رأس حقلكم في حوض النمرة ؟) ..
وقفزت بعمري قافزاً لسنوات الطفولة ،
القواديس التي تنزح الماء في السواقي ، الحي الموسوم باسمها بين المنشية واللبان في عروس المتوسط " الإسكندرية " ، كانت تُصنع ـ في الزمن الذي فات ـ في الورش الكبيرة ، ثم يأتي بها التجار لرءوس حقولنا . الثور ـ ثورنا العفي ـ يدب بحوافره علي المدار ، مغمض العينين ، دوران لا نهائي متصل ، صرير القواديس واحتكاك المفاصل ، نزح الماء من البئر واندفاعه في المجرى ، انسيابه بوداعة حول السوق الخضراء الريَّانة .
الهماميل !!
ماذا تعني الهماميل هذه ؟!
هل هي البئر الذي لا ينضب ؟ ، هل هي القواديس التي لا تتعب ؟ ، هل هي الثور العفي المغمّى في دورانه اللامحدود ؟ ، هل هي دورات التاريخ عبر السنوات الطوال ؟ ، هل يكرر التاريخ نفسه كما يقولون ؟ ، هل هي الإحلال المستمر ؟ .
هماميل ، ثم ساقية بوجهين ، ثم ثم ماكينة مياه تدفع الماء بقوة في الوقت الذي يقال لنا فيه : احذروا موجة الجفاف الآتية من الجنوب .
يقول " مصطفى نصر : " موضوع الرواية يظهر أمامي بشكل عام قبل الكتابة ، وعند الكتابة تتكشف الأحداث والشخصيات ،والروايات التي كتبتها عن الحي الذي أعيش فيه أو عن حي كرموز ، جاءت شخصياتها مرتبطة بالحي ، وبعضها شخصيات أعرفها وقابلتها وأثرت في وجداني ، وفي روايتي الهماميل ذات

الموضوع التاريخي ، جاءت الشخصيات من بعيد ، من أيام الحرب العالمية الأولى ، واعتمدت علي التصوير من خلال قراءاتي عن هذه الفترة " .
ترى هل استوعب مصطفى نصر التاريخ في روايته ذات الموضوع التاريخي ؟ ، وهل كان صادقاً ومعبراً عن تصويره ؟ ، عالم الأدب هو عالم الحلم والطموح ، الكاتب عندما يجتاز مدرسة الحياة القاسية ، وعندما يحب الحياة ويتعذب بحبها ـ رغم مشقاتها وعذاباتها ـ فإنه يغمس ريشته في مداد الواقع الذي يحياه ، يسطر عنها بقلي مفعم بالطموح السامي ، تراوده تلك الأحلام المشروعة في علاقات إنسانية سويَّة ، ومن هنا يتأتى صدق العمل الفني وإخلاصه .
قال أحد النقاد : " أن مصطفى نصر أدرك ديناميكية التغيير الاجتماعي بذكاء وحساسية وعبر عنها بوعي واستيعاب " .
في هذا العمل " الهماميل " يتصدى مصطفى نصر بنظرة ثاقبة لكل ما هو قاتم وغير لائق بالإنسان ، هو إذ يكتب رواية تاريخية فإنه لا ينفصل عن الحاضر ، أو ويكون مكتبياً أو تجريدياً ، لكنه بالقطع كان كاتباً رومانطيقياً يمزج الماضي بالحاضر ، والواقع بالخيال ، القوى السياسية القديمة والجديدة .. ، تلك الهماميل التي تعلو للقمة ثم لا تلبث أن تهبط للقاع ، ثم تعود للقمة مرَّة أخرى ، وهكذا دواليك .

المؤلف:

مصطفى نصر صاحب رواية الهماميل (روايات الهلال ـ فبراير 1988 م) من مواليد أغسطس 1947 م بحي غربال بالإسكندرية ، وهو حي من الأحياء القديمة العتيقة ، يزخر بالكثير من الوافدين من صعيد مصر . كان والده قد نزح للإسكندرية من بلدة المراغة بمحافظة سوهاج في أوائل الأربعينات ، وهو أحد ستة أخوة .
يعتبره النقاد أحد أدباء الموجة الثانية لجيل الستينيات .
يقول مصطفى نصر : " في البداية كان عشقي للقراءة ، ولا أعرف كيف جاء أو تولد عندي ، فلم يكن في أسرتي أحد يقرأ لأقلده وأقرأ مثله ، وأذكر أن قراءاتي منذ الطفولة كانت قراءات الكبار : يوميات نائب في الأرياف ، الأيام ، وإسلاماه .
ويقول عن أعماله : " رواية (امرأة في الوحل) كتبتها في سن 14 سنة ولم تنشر " ، وعن اتجاهه للنشر والإبداع الحقيقي يقول : " عندما بدأت الاتصال بالحركة الأدبية في الثغر في عام 1967 كنت متأثراً جداً بإبداع جيل الستينيات ، خاصة الأدباء الذين نشروا في مجلة " جاليري 68 " ، وأذكر أنني كنت مرتبطاً أيضاً بمدرسة صباح الخير ، وكنت أبحث في كل مكان عن أعدادها القديمة ، وكم أعجبني فتحي غانم وهو من أحب الكتَّاب إليَّ ، وأتصور أنني كمبدع بدأت الكتابة الفعلية في القصة القصيرة ، ورغم ذلك كانت لي محاولات في الرواية ولم أعرضها علي أحد حتى نُشرت روايتي الأولى (الصعود فوق جدار أملس) 1977 م ، ولم أحس بعد نشرها بذلك الصدى الذي كنت أتمناه وأتصوره .

بعد ذلك حصلت علي الجائزة الأولى للرواية عام 1982 م عن روايتي (الجهيني) من نادي القصة بالقاهرة ، وكانت قيمتها مائتي جنيه ، بعدها صدرت روايتي (جبل ناعسة) عن المجلس الأعلى للثقافة ، وفي عام 1983 م صدرت (الجهيني) في كتاب المواهب في 1984 م ، وفي طبعة محدودة من مطبوعات مديرية الثقافة بالإسكندرية خرجت للنور (الشركاء) ، أمَّا المجموعة القصصية (الاختيار) صدرت عن سلسلة (الإبداع العربي) عن هيئة الكتاب في 1986 م .

الرواية:

مصطفى نصر بأعماله السابق الإشارة إليها روائي بارز وموهوب ، استطاع أن يشق لنفسه طريقاً في عالم الأدب . يقول أحد النقاد عنه : " التعبير عند مصطفى نصر يتم علي جمل قصيرة بها قدر كبير من الصفاء ووضوح المعنى مما يعكس نفس كاتب صافية قادرة علي الرؤية النافذة " . لا شك أن قدرته علي التقاط عناصر الحياة المتدفقة في الحي الشعبي الذي نشأ فيه تدفع روايته إلي عالم يزخر بالأحداث والرؤى والانفعالات والأحاسيس .
حي الهماميل الذي تكثر به ورش السباكة والحدادين وصناع الهماميل ، تكون الأحداث التي تثير الأسئلة الخصبة عن الرؤى السياسية والاجتماعية ، خاصة أن الزمن الروائي ممتد تاريخيا من الحرب العالمية الأولى وحتى الواقع الآني المعاش ، وعلاقة ذلك به ، ومدى علاقة المكان بالشخوص ، والتأثير المتبادل بين الشخصية والواقع ، واستثمار طاقات الزمن والتاريخ إبراز مكونات الأحداث .
كل هذا من خلال خضم الأحداث المصرية من 1914 م حتى الآن ، يقسم مصطفى نصر الرواية إلي فصول تحمل أسماء الأبطال كما فعل نجيب محفوظ في عدد من رواياته مثل (ميرامار) و (حديث الصباح والمساء) ، أو كما يفعل كتَّاب آخرون أيضاً .
تبدأ الرواية بفصل " أبو الوفا حسنين " ثم " صالح مجاهد " ، ثم تنتهي فصول الرواية بمسميات دالة كـ " المواجهة " و " الخيانة " .
يمتد الصراع في الرواية من الماضي إلي الحاضر ، عصر السلطان حسين يكتنفه مناخ مظلم ، قصر مستبد ومستعمر محتل وعملاء . في الجانب الآخر وجه مضيء : رجال نذروا أنفسهم للجهاد والكفاح ، ثم الحاضر القريب الماثل في الأذهان ، عصر ثورة يوليو 1952 م وما صاحبه من تغير شامل خلال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات . السلطان حسين جاء للسلطة بفرمان إنجليزي ، عزل ابن أخيه " عباس حلمي " ، ثم تعيينه سلطاناً علي البلاد في نوفمبر 1914 م ، وأول تصريح يدلي به إلي مراسل " التيمز " نصه : " إننا لا نستطيع أن نفي بريطانيا حقَّها من الشكر علي ما فعلته لمصر ، وإنني موقن من زمن طويل بأن مصر وسائر الأقطار الشرقية في احتياج للأوروبيين " . ص62 .
في نفس السلة تضع الرواية " حسنين " خادم الإقطاع وخولي الزراعة في أرض الباشا : تروي الرواية حكاية حسنين مع الفلاَّح الذي أخذ عنقوداً من العنب :

" ـ في عرضك يا حسنين أفندي .. لم أخذ سوى عنقود واحد .
ـ عنقود واحد مثل كرمة عنب .. كله سرقة .
ويضرب الخفراء الفلاَّح ويحملونه فوق الحمار والعنقود معلق في رقبته ، طافوا به القرية كلها " ص37 .
تظل الحكاية كابوساً يؤرق فرع حسنين " أبو الوفا " ، ولحسنين فرع آخر ، أورثه أيضاً شرور نفسه " أبو زيد " .
أبو الوفا هو الأخ الأصغر لأبي زيد ، وهو ابن الزوجة الثانية لحسنين ، أغرته بعد لك وهي صبية تضع الكحل في عينيها وتزيل الشعر الزائد عن الحاجبين ، أغرت الخولي العجوز حتى تزوجها علي أم " أبو زيد " .
أبو زيد صار تابعاً لـ " إنجرام " المأمور الإنجليزي حتى صار " أبو زيد باشا " ، غدا أستاذاً للكثيرين من الضباط ، يحكون عن خططه في مطاردة المجاهدين والثائرين والقبض عليهم ، ورغم أن الفرد امتداد للأصل ، فإن العلاقة المتهرئة تتبدَّى بينهما :
" لمَّا مات حسنين الأب كان ما زال يرتدي بدلته القديمة ، لم يتغير فيه شيء " ص38 .
كسب أبو زيد كثيراً لكنه لم يرسل له مليماً واحداً .
وفي سلسلة النضال المتصلة نرى " جمعية مساعدة ثوار طرابلس " : زكي رشدي وأحمد طايل ، وكيف يحيك أبو زيد الخطط للقبض عليهما ، ونراه في جانب آخر من الرواية يطارد حمدي شعراوي ، ويتفرغ لمراقبته بلا كلل أو هوادة حتى يسقط في النهاية ، وينهار تحت وطأة الحاجة ، ويتحول من مناضل إلي عميل يشرب من بئر الخيانة حتى الثمالة .
تمتد أفرع الشر حتى الحاضر ، نجد " أبو الوفا حسنين " الذي صار ـ كما تمنت أمه ـ مثل أبو زيد ، لكنه يعجز عن مواصلة الطريق ، الكوابيس تطارده ، أبوه وأمه والفلاَّح أبو زيد ، وولده إسماعيل الذي راح ضحية شكه وغيرته القاتلة علي زوجته الصبية " ملك " ، وتتنازعه الأهواء ويئن تحت نفسية مشروخة وعدم قدرة علي التواصل مع الآخرين ، يفقد إسماعيل في حادث سيَّارة وتكرهه " ملك " ، يفشل في عمله ويُجبر علي ترك الشرطة إلي شركة كيماويات ، ويتوقف نشاطها ويتسبب في نقل مؤسسها الدكتور صالح ، وتتركه " ملك " إلي بيت أخيها .
علي نفس الخط يتوازى الدور المشرق لـ " مجاهد عبد الراضي " في الرواية بتاريخه النضالي عبر سنوات الكفاح الطويل في مواجهة القصر والمستعمر من خلال جمعية سرية تعمل لصالح مصر بقوة السلاح ، يعرف طريقه لجمعية " التضامن الأخوي " من خلال صديقه " علي منصور " .
صورة العصر يرسمها الراوي :
" في عصر السلطان حسين يكثر غش المصوغات ، وتظهر فئة من المحتالين يبيعون للناس نحاساً مطلياً بالذهب علي أنه من الذهب الخالص ، وكثُرت جرائم تزييف النقود الفضية والورقية من الأجانب والوطنيين ، وضُبطت آلات التزييف

للنقود في عدد من القرى والمدن ، كذلك خطف النقود والملابس والمواد الغذائية من المارة والمحلات العامة ، وكثُرت السرقات ، واشترك في السرقات بعض المتعلمين وبعض الموظفين ، وانتشرت الدعارة كوباء ، وأثرى القوادون ثراءً فاحشاً " ص89 .
عندما يتحقق الحلم في قيام الثورة ويطرد المستعمر ويتولى الضباط الأحرار زمام الأمور وتتفرع شجرة النضال فيأتي صالح امتداداً لمجاهد عبد الراضي ، و " صفية " امتداداً لعلي منصور ، والثورة تمضي ما بين النجاح والفشل ، يتبدد حلم " مجاهد " في أن يكرم الثوار كفاحه الطويل ، وعندما ينحصر حلمه في نشر مذكراته تنجح " صفية " في نشرها في المجلة حتى يتوقف النشر بأوامر عليا لأن المذكرات تمس ذوات بعض الرموز الممتدة من الماضي . حتى صديقه " علي منصور " يُقبض عليه مع أسرته في أحد الأيام ويُساق للمعتقل . تمتد نيران الثورة إلي جيل الثورة نفسه فيفصل صالح مجاهد من الكلية الحربية ، وحتى عندما ينجح في الحصول علي الدكتوراه من كلية العلوم ويعمل في مؤسسة كيماوية ، تطارده أفرع الشر ويقضى علي أمله وينتهي الأمر به أن يكون بلا عمل . كذلك تفصل " صفية " من المجلة التي تعمل بها لأنها ما زالت تحفظ لقلمها ما تؤمن وتتمسك به . تتأرجح علاقة صالح بين صفية وأمينة (المعيدة بكلية العلوم) ، ويدخل أبو الوفا حياة صالح من خلال توليه المؤسسة الكيماوية ، وصالح يعجز عن تحقيق رغبته في الزواج من أمينة ويعود لصفية .
هكذا نجد الثورة تتخبط وتعجز عن تحديد أبنائها من أعدائها ، فنجد صالح لا يعمل ، ويتوقف قلم صفية ، ويمنع نشر مذكرات مجاهد ، ويموت علي منصور حزيناً ، وتتزوج أمينة ضابطاً لا يلبث أن يماشي أحداث عصره ، فيترك الجيش للتجارة والتصدير والاستيراد ، ويقف أبو الوفا علي رأس المؤسسة الكيماوية فتتوقف .
تماماً مثلما انهزم " حلمي شعراوي " تحت وطأة الحاجة ومطاردة أبو زيد المستمرة له .
وهكذا ينتهي مضمون " الهماميل " بهزيمة العناصر النبيلة والشريفة ، وبقاء عناصر الشر ، كأنها النهاية التي أصابت ذلك الجيل الذي دهمته الأحداث السياسية المتلاحقة ، الجيل الذي صفق لطموح الثورة في الحرية والاشتراكية والوحدة ، وهلل لنجاحها في التأميم وبناء السد العالي وطرد المستعمر والوحدة ونصر أكتوبر، وعاصر الإحباط عند فشل مشروع الوحدة وهزيمة يونيو 1967م وتغير الشعارات وسلبيات الانفتاح وتمزق العرب ..
لكن هزيمة أبطال مصطفى نصر ليست هزيمة كاملة ، إنهم لا يستسلمون ، لم تود الأحداث بهم لمهاوي اليأس أو الجنون .
" يضحك صالح ويخاطب صفية : " أخشى أن تضعف مقاومتك ..
" سأبقى معك إلي أن أجد حلاً " ص 126.

* * *

الزمن الروائي:

اختار مصطفى نصر للرواية زمنا تاريخياً ممتداً من عصر السلطان حسين وحتى الحاضر القريب ، وهي فترة زمنية خصبة بالأحداث السياسية والمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية .
الحدث الذي يمثل الدور الأساسي في الرواية حدث متطور ديناميكي تحققه شخوص الرواية علي كل من جانبي الصراع ، الأحداث المطردة للأمام ترصدها مذكرات " مجاهد عبد الراضي" ، الاسترجاع في ذاكرة الشخوص ، تدخل المؤلف أحيانا لقطع التسلسل الروائي وسرد بعض الوقائع والأحداث التاريخية ، كأن أحداث ما قبل الثورة تمتد في خطوط متوازية إلي ما بعد الثورة ، تأرجح نشط بين الزمنين يدب في العمل ويدفعه بقوة من البداية للنهاية ، الحدث من خلال الزمن يفصح عن نفسه بإيحاءاته ودلالاته ، والموازنة والمقارنة فيما قبل وفيما بعد الثورة ، الأحلام والشعارات وفساد الواقع أحيانا .

* * *

المكـــان:

مصطفى نصر مولع بالأحياء الشعبية، يرتبط بالطبقات التي تعيش فيها ، يكتب واقعية ترتبط بالمكان والناس ، في رواياته السابقة : الصعود فوق جدار أملس أو جبل ناعسة يأخذنا لقاع المجتمع " المخدرات والجنس والفقر والغنى والقهر الاجتماعي " ، أو الجهيني التي تتضح فيها دورات الفساد التي يصنعها أفراد كبار لا يتورعون عن اقتناص ما في أيدي الفقراء .
وفي " الهماميل " ينطلق نصر من هذا الحي الشعبي ليكتب زمنا تاريخياً يصنعه أبناء الحي ، يستثمر طاقات الزمن الروائي الممتد ليعكس التغيرات المختلفة علي المكان والناس .
يقول مصطفى نصر : " للإسكندرية اهتمام خاص عندي ، وهي ليست إسكندرية البحر أ و الشاطئ ولكن إسكندرية أخرى لا يعرفها المصطافون ، أحياء قديمة شعبية كانت مسرحاً لأحداث واحتكاكات بين الأجانب الذين عاشوا علي أرضها إلي أن خرجوا في 1956 م ، ثم ما تركوه من أثر في السكندريين الذين عاشوا وعملوا معه " ؟

* * *

الشكل والبناء الفني:

يقول النقاد أن مصطفى نصر واحد من جيل الواقعية الجديدة في الأدب العربي الحديث ، تلك الواقعية التي يمثلها يحيى الطاهر عبد الله وجمال الغيطاني ومحمد البساطي ويوسف القعيد وغيرهم ، حتى بعض كبار كتابنا كنجيب محفوظ . هي

واقعية تنحو طريقاً جديداً مغايراً للواقعية النقدية أو الطبيعية للأجيال السابقة ، تستلهم في ذلك بزوغ طبقات جديدة وقيم جديدة ، صاحب ذلك التغير الهائل الذي طرأ علي المجتمع بعد الثورة ، فبزوغ طبقات العمال والفلاَّحين والكادحين والتطلعات المادية المشروعة أو غير المشروعة والتي بلغت ذراها في السبعينيات من خلال مسايرة الانفتاح والعناصر المتسلقة والمتطفلة دوماً وصراعها مع عناصر الخير بقيمها الإيجابية ، وذلك البطل المأزوم والمهزوم أحياناً ، وتلك الاستماتة في التمسك بكل ما هو أصيل ، وعجلة الحياة المادية السريعة ، والظروف الاقتصادية الصعبة ، وإنسان العصر المحاصر بالمشكلات المزمنة .
كل هذا أفرز واقعية جديدة ترسم هذه الرؤى ، وتبلور هذه المضامين من خلال الأعمال الأدبية والفنية . يقول مصطفى نصر : " قبل كتابة " الصعود فوق جدار أملس " كنت أحلم بتقديم شكل جديد للراوية العربية ، واعتقد أنني بعد أن انتهيت منها أحسست أنها لم تخرج بالصورة التي كنت قد رسمتها ، وفي تصوري أم السبب راجع لتأثري الشديد بإبداع جيل الستينيات ، وكتابات " كولن ويلسون " .
لقد أراد مصطفى نصر أن يحقق طموحه هذا في " الهماميل " : فالتقسيم الشكلي للرواية بفصول تحمل أسماء أبطال العمل تارة أو مسميات عامة تارة أخرى ، تدخله الصريح بقلمه لسرد أحداث ووقائع تقطع تسلسل الرواية ، الأحداث التي تروى بضمير الغائب أحياناً وضمير المتكلم أحياناً أخرى ، الجمل القصيرة المتوثبة ، المونولوج الداخلي ، تكثيف المعاني والعبارات ، الحيادية ، بساطة اللفظ ، الموازنة والتأرجح بين الماضي البعيد والحاضر القريب ، دلالات الأحداث ، التعلق بالمكان الشعبي ، الصراع المتنامي بين الخير والشر ، البعد عن السرد التقليدي أو الكتابة المباشرة ، بطل العصر المأزوم ، تسيد الحدث وبروزه ..
لذا فإنه في " الهماميل " قد خالف الشكل الروائي له فيما أبدعه سابقاً ، وذلك حق الأديب وطموحه نحو التغيير ، الفن لا يعرف الجمود ولا يصب في قوالب جامدة .
هل نجح مصطفى نصر في أن يجعل من " الهماميل " إضافة بارزة في شكل الرواية الحديثة ؟

* * *

خاتمة:

" الهماميل " رواية جديدة ومصطفى نصر روائي موهوب ، لم يكتب رواية سياسية ، لكنه استلهم التاريخ من خلال ديناميكية أحداثه ، وانعكاس هذه الأحداث علي البشر خلال الزمن الروائي وشخوص روايته ، فهو الروائي الفنان وليس رجل السياسة .
لذا فقد أبدع عملاً روائياً أدبياً ، التزم فيه الصدق حيال هؤلاء البشر الذين يعرفهم ويعايشهم .
وقد استطاع من خلال ثقافته أن يكتب فناً حقيقياً للواقع وليس نقلاً عشوائياً ، واستطاع أن يطرح رؤيته وفهمه وإدراكه الواعي .

* المقال الفائز بالجائزة الأولي في مسابقة " هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - نوفمبر 1988م .

المصادر :

1- الهماميل - روايات الهلال - فبراير 1988 م .
2 - مجلة القصة - العدد 46 - د. سعيد الورقي (جبل ناعسة واتجاه جديد للرواية العربية) .
3 - مجلة الهلال - قراءة تأملية في هماميل مصطفى نصر - سعيد سالم - إبريل 19898 م .
4 - الأديب مصطفى نصر - الجهيني وعالمة - الوجه الآخر من العالم السكندري - حوار الأخبار 9 / 3 / 1988 م .
5 - مصطفى نصر ودوره في الرواية الحديثة - د . محمد مصطفى هدَّارة - أخبار 9 / 3 / 1988 م .
6 - جبل ناعسة - رواية - المجلس الأعلى للثقافة - 1983 م .
7 - الجهيني - رواية - كتاب المواهب - 1984 م .
8 - الاختيار - مجموعة قصصية - الإبداع العربي - هيئة الكتاب - 1986 م .
9 - قراءة في الاختيار - حسين عيد - الأخبار 9 / 12 / 1987 م .
10- البناء الفني في رواية جبل ناعسة - حسين عيد - إبداع 2 / 1985 م .
11- الجهيني (متابعات) - د . محمد مصطفى هدارة - إبداع 11 / 1985 م .
12- قراءة في رواية جبل ناعسة - سعيد سالم - مجلة عالم القصة - العدد 15 .
15- الجهيني (هموم ثقافية) - فاروق خورشيد - إبداع .

تراث

أ ـ حديث عيسى بن هشام .
ب ـ التوحيدي شاهد علي العصر .

حديث " عيسى بن هشـــام "

حدثنا " عيسى بن هشام " قال : رأيت في المنام كأني في صحراء " الإمام " ، أمشي بين القبور والرغام ، في ليلة زهراء قمراء ، يستر بياضها نجوم الخضراء ، فيكاد في سنا نورها ينظم الدر ثاقبه ، ويرقب النور راقبه ، وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور وفوق هاتيك الصخور ، بغرور الإنسان وكبره وشموخه بمجده وفخره .. " (1)

هكذا يبدأ " عيسى " حديثه ، حيث يستهل أحداثه بواقعة هامة ومثيرة ، تلفت انتباه القارئ وتأخذه مشوقاً لمسار الأحداث وتطورها فيما بعد ، حيث ينشق له قبر ويخرج منه رجل طويل القامة ، عظيم الهامة ، فيتلفت " عيسى " تلفت الخائف المذعور ، ويحاول الفرار ، إلاَّ أن صوت الدفين يناديه فيمثل لأمره ، ويدور بينهما حديث نعرف منه أن الرجل هو " أحمد باشا المنيكلي " : ناظر الجهادية المصرية والذي عاش في عصر محمد علي باشا .

وهكذا نتتبع الأحداث بشغف كي نعرف مصير هذا الباشا العائد من عالم الحق إلي دنيا الباطل مرَّة أخرى .

ولعل إعادة طبع الأعمال الإبداعية التراثية في مشروع مكتبة الأسرة " القراءة للجميع " بأعداد كبيرة ، ومنها " حديث عيسى بن هشام " أتاح فرصة الإطلاع للقارئ العادي علي واحدة من أجمل ما كتب في تراثنا الأدبي ، وذلك بعد مرور مائة عام تقريباً علي الطبعة الأولى لهذا العمل الفريد .

كتب " محمد المويلحي " المتوفى عام 1930 " حديث عيسى بن هشام " بأسلوب المقامة ، وبدأ في نشره عام 1898 م بجريدة " مصباح الشرق " ، واستمر النشر فيها حتى عام 1900 م ، واعتبر النقاد كتابته لهذا الحديث أول محاولة قصصية ناجحة لتمصير الأدب ، وجعله أقرب للمحلية علي المستوى الرسمي ، لأنه علي المستوى الأدبي الشعبي كان هناك شئ آخر سوف نشير إليه فيما بعد ، وعندما كتب " حافظ إبراهيم " المتوفى 1931 م " ليالي سطيح " ، كان واضحاً فيها تأثره بـ " المويلحي " في حديثه ، وهنا نود أن نشير في عجالة للقصة العربية من حيث كونها فن أدبي له تاريخ قديم عند العرب ، يمتد حتى عصور جاهليتهم الأولى ، فهم مثلهم مثل كل شعوب الأرض ، كان لهم نصيب وافر من الأساطير والخرافات والملاحم والسير الشعبية ، والتي يقوم عمادها في مجمله علي عنصر أصيل وهو فن القص ، كان هذا أيام الجاهلية وامتد بصورة طبيعية بعد مجيء الإسلام ، وظلَّت القصة تحتفظ بمكانتها لدى العرب الذين كانوا يحتفون بالشعر في المقام الأول ، لكنهم كتبوا القصَّة الشعرية أيضاً التي بلغت

أوجها مع " عمر بن أبي ربيعة " (720 م) ، كما أكَّد الإسلام أيضاً مكانة القصة بما جاء في القصص القرآني ، سواء أكانت قصصاً تاريخية أو تمثيلية أو أسطورية أو قصة هبوط آدم عليه السلام من الجنَّة أو غيرها .

وقد بلغت الثقافة العربية ذروة نشاطها إبَّان العصر العبَّاسي ، الذي ازدهرت فيه عمليات النقل والترجمة من اللغات الإنسانية الأخرى ، والتأثير والتأثر ، واكب ذلك عمليات الخلق والإبداع الفني ، وعرفنا في هذا العصر أسماء كتب عظيمة مثل كتاب " كليلة ودمنة " ، وأسماء مبدعين عظام مثل : الجاحظ والإمام الغزالي والطرطوشي وابن ظفر الصقلي وغيرهم .. هذا علي المستوى العربي العام ، ويتبقى لمصر خصوصية معرفة الفراعنة لفن القص الذي نقلته أوراق البردي وحوائط المعابد والقصور القديمة ، ولعل كتاب " الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة " للعلاَّمة " سليم حسن " ينقل لنا تلك النماذج المبهرة من هذا الفن الذي برعوا فيه .

لكن المقامة كفن أدبي نشأت من أصول عربية ، وتعرف ببساطة بأنها الحديث الذي يلقى علي جماعة من الناس ، وهي تقترب من فن القصة لكونها تشبهها في أنها تدور حول بطل وهمي يروي أخباره راوية وهمي أيضاً : " عيسى بن هشام " يروي عن " أحمد باشا المنيكلي " ، وأقدم المقامات التي عرفناها علي المستوى الرسمي مقامات " بديع الزمان الهمزاني " 1008 م ، ومقامات " الحريري " 1122 م ، وهي تقوم بالطبع علي نفس الثنائية : البطل والراوي الوهميان ، وتجدر الإشارة أن هذه الثنائية في المقامة ، وبالتالي هذا الفن نفسه ، ترجع أصولها وأصوله إلي ما قبل ذلك بكثير ، حيث أنها ظهرت في الأعمال الشعبية المتأخرة ، أو كما يقول الأستاذ فاروق خورشيد : " حيث كانت تتكرر في المحتالين والشطَّار في ألف ليلة وليلة والسير المختلفة من الظاهر بيبرس إلي علي الزيبق إلي ذات الهمَّة في فصولها المتأخرة زمناً " (2)

هذا الفن العربي أخذ طريقه فيما بعد إلي لغات أخرى .

ولقد اختار " المويلحي " ، وكأنه كان مصراً ، نفس الراوية في مقامات " بديع الزمان الهمزاني " ، ألا وهو " عيسى بن هشام " ، وكأنه يخبرنا بإصراره هذا ، أنه مازال موصولاً بالماضي وهو يكتب عن زمنه الحاضر ، ثم وهو يستمد منه المدد والعون ، ثم ينبئ " المويلحي " بعد ذلك عن غرضه من كتابة هذا الحديث ، ويوضح خطته التي اتبعها في الكتابة وذلك في التقديم لحديثه ، حيث يقول الدكتور " محمد حسن عبد الله " : " يقرر أن حديثه جاء علي سبيل التخيل والتصوير وذلك بعرض الحقائق في ثوب من الخيال ، في محاولة لشرح أخلاق هذا العصر وأطوارهم ووصف ما عليه الناس من النقائص ليتجنبوها ومن الفضائل ليزدادوا تمسكاً بها " (3)

وبالطبع نحن نتبين خطته هذه عندما نمضي مع " عيسى " ورفيقه العائد من القبر " الباشا " ، ونتتبع ما حدث لهما ، تحت عنوان " العبرة " يصطدم " الباشا " بـ " المكاري " الذي يتسافه عليه ويدعي عليه بالكذب ما لم يحدث منه ، حتى يوصله في النهاية للبوليس ، وعند البوليس تستمر المهزلة ، ويتعجب الباشا من سلوك الشرطي والمعاون ، ثم النيابة والعدالة القضائية العرجاء الزاحفة زحف السلحفاة ، رغم أنها هي التي تقيم الدعاوى بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية ، يلجأ " الباشا " للمحامي الأهلي ، ويكشف لنا " المويلحي " بذكاء صوراً شتَّى للمحامين في هذا العصر ، والمحاكم متعددة الأغراض ، لكل منها نظامها وقانونها وناسها ومحامييها ، حتى أن " الباشا " يقسم محتجاً : " بالله لقد فسد الحال وانحل النظام ، وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنَّة نبيه ؟ ، وهل أصبحتم في الزمن الذي يعنيه بقوله

" قد مسخ الشرع في زمانهم فليتهم مثل شرعهم مسخوا "(4)

وكأن بطء التقاضي سمة مصرية أصيلة توارثناها عن أجدادنا الفراعنة منذ زمن بعيد ، ويلتفت " المويلحي " في حديثه للصحف التي صارت تصدر في البلاد كأحد مستحدثات العصر : المؤيد والمقطم والأهرام ، وبماذا تعني هذه الصحف وماذا تنشر علي صفحاتها ؟ . ويستمر الحديث علي هذا المنوال في تعرية المجتمع وفضح عيوبه والكشف عن سلبياته دون موارية أو خداع : فمن مرحلة التقاضي إلي مرحلة إعادة وقف الباشا إلي مرحلة وصف أبناء الكبراء والفرق بينهم وبين كبراء العصر الماضي " عصر الباشا " .. (لاحظ أننا مازلنا حتى الآن في كثير من مناحي أدبنا نقارن بين أثرياء اليوم وأثرياء العصر الماضي ، والنتيجة التي تكون دائماً في صالح ما فات) .

ثم نمضي مع الباشا للمحامي الشرعي ونتعرف علي غلامه الماكر الذي يجيد اللعب بـ " البيضة والحجر " كما يقول العامة ، ثم لقاؤه بحفيده الذي بدد الثروة علي المظاهر الكاذبة ، الحفيد ابن جيله الذي يتطلع بغباء لتقليد الغرب تقليداً أعمى ، ثم نزور معه الأطباء وأهل الطب ، هذه الصناعة الإنسانية العظيمة ، لنفاجأ بكثير من الأدعياء الذي ادعوا الحكمة والتطبيب ، وهم ليسوا إلاَّ لصوص تجردوا من إنسانيتهم وهم يمدون أيديهم لأموال المريض ينهبونها نهباً منتظماً ، ويتمنون موته ليستولوا علي ما يملك ويطال طمعهم حتى الزوجة والأبناء ، ويسمر الحديث هكذا دواليك من حادث لآخر ومن قصة لأخرى بسلاسة ويسر بلا تكلف أو إدعاء ، الرباط القوي يمسك بأجزاء العمل وتفصيلاته ، التراكم يأتي حسب الأسباب والأغراض والغايات والأهداف واضحة دون لبس ، السرد والوصف مع الاقتراب من أغوار النفس البشرية بتقلباتها المختلفة ، الحوار المناسب واللفظ الواضح المؤدي للغرض ، كل هذا اجتمع لـ " المويلحي " بلا شك وهو يكتب حديثه .

وعندما استمر بعد ذلك مع الباشا أثناء مرض الطاعون الذي طحن البلاد طولاً وعرضاً ، وعزلة الباشا مع محدثه مع العلم والأدب ، ولا ينسى أن يستعرض شرائح من المجتمع وطوائفه : الأعيان والتجار وأرباب الوظائف ، ويقدم لنا

وصفاً طريفاً لعرس يقلمه الساخر ، يبين لنا فيه مظاهر السفه والنفاق وقلة العقل والأدب ، ثم وهو يرسم لنا الصورة الكاريكاتورية للعمدة الذي يصحبنا معه لنلتقي مجموعة أخرى من النصابين والخلعاء والخدم وأهل المراقص والملاهي ، ولا ينسى أن يقدم لنا نوعية " البرنس " الذي يلتقي بالعمدة فلا يختلف كثيراً عن الخليع الذي يعرفه ، ثم نتتبع العمدة في كل محاولاته الفاشلة في الاختلاء بالراقصة لنيل غرضه منها ، يذهب تارة للأهرام " ويدور حديث عنها " ، وتارة أخرى لقصر الجيزة والمتحف ..

ويأبى " المويلحي " ألاَّ يختم حديثه دون أن يصحبنا لزيارة باريس ، والغرض واضح بالطبع ، وهو الوقوف علي ما لدينا والموازنة بين أخلاقهم وأخلاقنا والعادات والتقاليد والروح .

وهكذا طوَّف " المويلحي " بنا في مجتمعه ، لا يلوي علي شئ سوى قلمه الرشيق ، يسرد به العبارات ، يزينها بالسجع ويستشهد بأبيات الشعر ، والحوار المتدفق الصريح بلغة فنية رفيعة وثقافة معرفية شاملة لمناحي عصره ، وبمفرداته اللفظية الثرية ، وحيث يتقابل الحوار في محورين : " عيسى " و " الباشا " من ناحية ، أو كلاهما والآخرين من ناحية أخرى ، وتأمل هذه العبارات : " عصا صقلها طول التوكؤ " ـ " يتعبد ويتهجد ويسلك طريق النسك والزهد " ـ " إن نفس المرء خطاه إلي أجله " ـ " المنخل يحفظ الغث التافه ويفرط في النافع " (5) ..

لهذا اتسم حديث " المويلحي" بالصدق وهو يبين أسباب الفساد المنتشر في المجتمع والانحلال والتشبه الأعمى بالغرب والنفاق والرياء والبعد عن روح الدين وجوهره الأصيل ، مؤكداً علي ثقافته أصيلة المنابع ، فلقد تأثر " المويلحي " بآراء واجتهادات زعماء الإصلاح والتنوير في عصره :ـ " جمال الدين الأفغاني " و " الشيخ " محمد عبده " وغيرهما ، فهو إذ يكتب إنما يختار أسلوب المقامة متمسكاً بالأصيل من تراثنا العربي ، وفي إهدائه لعمله يقول الدكتور " محمد حسن عبد الله " : " فقد أهدى حديثه هذا إلي روح والده رمزاً للصلة التي تربطه من ناحية ، ولكونه شق له طريق التأثر بالمقامة في كتابه (موسى بن عصام) ، الذي اعتمد فيه علي أسلوب المقامات اعتماداً كبيراً ، كما أهداه إلي روح الحكيم جمال الدين الأفغاني الذي كان يهدف إلي بعث مجد المسلمين وإيقاظ عقولهم ، وإلي روح الشيخ محمد عبده الذي كان يهدف إلي الإصلاح الاجتماعي وإصلاح اللغة ببعث تراثها القديم ، وإلي روح الشيخ الشنقيطي الذي كان عالماً لغوياً كبيراً له قدره وذكره في مجال إحياء التراث ، وأهداه أخيراً إلي محمود سامي البارودي الذي عاد بالشعر العربي إلي عهود القوَّة والازدهار التي كانت له أيام الأمويين والعباسيين " (6)

وتخلو طبعة " مكتبة الأسرة " من هذا الإهداء للأسف رغم أهميتها وارتباطها بالحديث .

وأخيراً ، يظل الحديث شاهداً علي عصره شهادة قلم مثقف واع ، حيث يتجلى الصراع بين قيم الخير وقيم الشر في صراع أبدي ، كذا المواجهة بين الروح العربية والشرقية الأصيلة ومستحدثات الغرب وقيمه وعاداته الغريبة آنئذ ، ثم الصلابة في مواجهة المحتل الغاصب الذي كان يرزح فوق صدر البلاد ، والدعوة الوطنية الكفاح والنضال ضده ، وسيظل للحديث بأسلوبه القصصي السبق في تمهيد الطريق أمام الأجيال اللاحقة من كتَّاب القصة العربية ، حتى من تمثلوا النموذج الغربي .

ولعل طبعة " مكتبة الأسرة "(7) للحديث تكون بداية للالتفات للأعمال المشابهة ، حيث تتيحها للقراء علي نطاق واسع ، وعلي سبيل المثال لا الحصر : " علاء الدين " لعلي مبارك ، " ليالي سطيح " لحافظ إبراهيم ، " حسن العواقب أو غادة الزهراء " لزينب فواز والتي سبقت بروايتها هذه رواية " زينب " لهيكل ، حيث أنها نشرت عام 1892 م .. وغيرها من الأعمال الجديرة بإعادة الطبع .

مراجع ومصادر :

1 ـ حديث عيسى بن هشام ـ مكتبة الأسرة ـ 1996 م .
2 ـ عالم الأدب الشعبي ـ فاروق خورشيد ـ مكتبة الأسرة 1997 م .
3 ـ حديث عيسى بن هشام (التراث والمعاصرة) ـ د . محمد حسن عبد الله ـ الأهرام 8/ 5 / 1998
4 ـ نفس المصدر (1) .
5 ـ نفس المصدر (1) .
6 ـ نفس المصدر (2) .
7 ـ مكتبة الأسرة : مشروع " القراءة للجميع " الذي تصدره الهيئة المصرية العامة للكتاب .

" التوحيدي "
شاهد علي العصر

(.. خلصني أيها الرجل من التكفف .. أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اشترني بالإحسان اعتبدني بالشكر ، استعمل لساني بفنون المدح ، اكفني مؤونة الغذاء والعشاء ..)

هل كان أبو حيان علي بن محمد بن عباس التوحيدي ، وهو يجأر بشكوى البؤس ، شاهداً علي عصره وأوانه ؟ ، أم أنه كان شاهداً علي حقيقة الأدب وحال الأدباء في كل عصر ؟ .

كانت الدولة العباسية قد انحطت وانشطرت لدويلات صغيرة ، واستبد بنو " بويه " بالحكم ، وامتزجت في شخوصهم الأضداد : الشر والخير ، الطغيان والحسنات . وبرغم فساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية كمنتج حتمي لفقدان الإستقرار السياسي ، إلاَّ أن الحياة العقلية والثقافية كانت في تقدم وارتقاء ، وكان الأدباء ، نتيجة لهذه الأوضاع يتجمعون في قصور الوزراء طلباً للرزق ، بعد أن أضناهم العوز وحطمتهم الفاقة ، ولم يكن غريباً حينئذ أن يجتمع الضدان : نهضة ثقافية متقدمة ، وأدباء وعلماء بين شقي رحى الفقر .

أبو حيان الذي وُلد في بغداد عام 310 هـ من أسرة فقيرة الحال ، وإلي أن مات ، لم يعش يوماً يسر الخاطر ، كان يتنقل برضائه أو رغم أنفه بين قصور الخلفاء والوزراء ، يدق أولاً باب " المهلبي " ثم يهجره عنوة بعد أن غضب عليه وشك في عقيدته ، وعندما طرق أبواب " ابن العميد " لم يجد عنده سوى الاحتقار والازدراء ، كما أنه لم يفز بطائل عند " الصاحب بن عياد " ، فكان أن كتب فيهما : " ابن العميد وابن عياد " رسالته في " ذم الوزيرين " . عندما حالفه الحظ قليلاً عند " ابن العارض " وقف له الزمن بالمرصاد ، فكان أن هجر " ابن العارض " الوزارة ، وآثر التوحيدي الابتعاد يجر بين طيَّات ثيابه المهلهلة سوء الحظ والفقر .

ورغم شقاء التوحيدي وفقره وحزنه وتشاؤمه كان رائداً للتنوير في عصره ، رائداً بإنتاجه وآثاره الفكرية : الإمتاع والمؤانسة ، الصداقة والصديق ، الهوامل والشوامل ، البصائر والذخائر ، النوادر ، تقريظ الجاحظ ، المقابسات ، الإشارات الإلهية .. ، وغيرها من كتبه ورسائله في الأدب والفلسفة والتصوف ، ولأنه كان سباقاً لعصره ، مرتفعاً علي أهل زمانه بالعلم والفكر ، لقد حدثت بينه وبينهم جفوة ، واتسعت الشقة ، كانوا من وجهة نظره " سباع ضارية وكلاب عاوية " ، كانت تشقيه الهوة التي تفصل بين عقله وإرادته ، وكان شيخاً صوفياً لم يرض عنه أهل السنّة ، كما كان معتذلياً يرفض أي حديث يعكس نظرة تجسيدية للذات الإلهية ، فكان ذلك مبعثاً لاتهامه بالإلحاد والزندقة والشك في عقيدته .

ترى : هل كانت شكاته هي تعبير عن ضيقه من نفسه ، وتمرده علي حياة لا يستحقها ؟ ، الظن يجيب بنعم ، فهو يتحدث مثلاً عن حال أساتذته وزملائه ، يقول عن أبي سليمان السجستاني : " بحاجة ماسة إلي رغيف ، وحوله وقوته عجزاً عن أجرة مسكنه ووجبة غدائه وعشائه " . وعن أبي سعيد السيرافي يقول : " ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش " . وعن الفيلسوف " يحيى بن عدي " : " يكتب في اليوم مائة ورقة أو أكثر " . وعن ابن ذكريا النهرواني الذي رآه في يوم : " نام مستدبراً الشمس في يوم شات وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم " .
كان العمر قد ولَّى سراعاً وهو القائل : " غدا شبابي هرماً من الفقر ، والقبر عندي خير من الفقر " ، ومهنة الوراقة التي كانت حرفته ناسخاً ومصححاً وناقلاً ، لم تورثه إلاَّ " ضياع العمر والبصر " ، كان يمد يده ويتحسس كتبه ، ويبتلع غصة حلقه ، علي قلَّة جدواها ، هل هذا هو العلم الذي أفنى حياته كلها من أجله ؟ ، وسأل نفسه : لمن يكتب ؟ ، أ لهؤلاء الناس الذين خذلوه واعتقلوا جواد طموحه ؟ ، ولمن يتركها بعد رحيله ؟ ، لقد عاش وحيداً بلا زوجة أو ولد أو صديق ، كان يائساً يأس العالم أجمع ، مريضاً ، واهماً وهم الشيخوخة ، وكان يمزق كتبه في سورة غضبه ويضرم فيها النار ، يحرقها ، يتأمل ألسنة اللهب وهي تأكل الحروف والكلمات ، كان يستحضر أقرانه الذين تمثل بهم : أبي عمرو بن العلاء ، داود الطائي ، أبي سليمان الدراتي .. وغيرهم .
لم يمض وقت طويل حتى جاءه هاتف الموت ، كان الرحيل في شيراز عام 414 هـ حيث دُفن .
لقد عاش التوحيدي حياته متأملاً عظيماً ، وهو يكتب عن الله والإنسان والحياة والموت والأخلاق والفن بثقافة موسوعية .
لقد حان وقت الاحتفاء بالرجل .
دراسة أثاره وإنتاجه الفكري ، إعادة طبع أعماله ، البحث عن مخطوطات كتبه المفقودة لإخراجها وتحقيقها وطباعتها .
لقد مضى ألف عام علي رحيله ، فلتكن فرصه لإنصافه ، ربما ينعم بقليل من راحة البال .

مواضع التماس بين عالمين

(قراءة في رواية " عائشة الخياطة " [1] لصلاح والي)

بعد روايتيه : " نقيق الضفدع " [2] و " ليلة عاشوراء "[3] ، يعود الأديب صلاح والي بعمله الروائي الثالث " عائشة الخياطة " لنفس عوالمه التي أبدعها من قبل ، لا يبتعد كثيراً أو ينفصل عنها ، لكنه يتواصل معها من خلال رؤية عجائبية ، محاولاً قدر طاقته رسم ملامح الصورة الكلية لهذه العوالم المجزأة ، وقريباً من تراثنا الأدبي الشعبي ، المدون منه أو المحكي شفاهة ، وقريباً من الأساطير والملاحم والسير والخرافات عن تاريخنا الموغل في القدم ، من البداية الفرعونية وحتى النهاية العربية ، من ألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن وذات الهمة وعنترة بن شداد وست الحسن والشاطر حسن ، قريباً من كل هذه وتلك ، يختط لقلمه طريقاً ، محاولاً أيضاً الابتعاد عن المكرر والمألوف والتقليدي ، يسلك درباً جديداً ، ليس معبداً تماماً بلا شك ، لكنه مطروق من قبل كما ذكرنا ، لكنه هنا يحاول صنعه بذاته وبمفرداته ليتميز به ، ويبعده كما أسلفنا عن دائرة الأشكال والمضامين السـائدة .

عالم القرية هو عالم وحدة الوجود حيث تختلط الكائنات وتتعايش ككل ، لا يعزلها عازل ، تؤثر وتتأثر ، تمنح وتعطي بقدر ما تأخذ ، مفردات الطبيعة الثرية : الماء والطين والأشجار والطيور والأسماك ، الإنسان وكل الحيوات الأخرى التي تتنفس نفس الهواء ، وتصنع حكاياتها العجيبة والغريبة في آن ، وقد اختار الراوي " السكاكرة " القرية التي تدور فيها أحداث روايته ، عالم الإنسان الذي يتماس مع عالم الجان في المنظومة الأدبية الشعبية هو الموضوع الرئيسي في الرواية ، وحدوث الامتزاج الأثيري بين العالمين عند تلك الحافة السحرية والغامضة .

تقول الرواية : (فاطمة السبعة بصوتها سبعة مغنيين من الرجال والنساء، من الجن والإنس ، فهي سليلة ثلاث عائلات من الجن هو والد فاطمة ، أو خلاصة عائلات الإنس امرأة هي أم فاطمة) [4] .

المنتج المروي دائماً يكون في صورة الكائن الممسوس أو الملبوس بلغة العامة : الرجل / الإنس الذي اقترن بالمرأة / الجنية .. أو العكس ، الاقتران الذي يحدث بنفس الترتيب المعقول للوقوع في الهوى والحب ، فالعشق ـ كما يرى المنظور الشعبي ـ ليس قصراً علي أبناء البشر ، لكنه يحدث أيضاً عند بني الجن ، بالتالي عندما يجئ أبناء هذا الاقتران بكل ما يحملونه من قدرات خارقة ، فإن العقل الجمعي الشعبي لا يرى ذلك غريباً ولا يستنكر حدوثه ، بل يعتقد في صدقه اعتقاداً يصل إلي حد اليقين ، هذا الاعتقاد تمتد جذوره لحقب زمنية بعيدة ، أو كما يقول " فاروق خورشيد " ـ عميد المشتغلين بالأدب الشعبي ودراساته ـ عن ذلك :

(يمكننا أن نحدد حكايات العشق بين الجن والإنس بأنها من الحكايات الشعبية التي عاشت في الأدب العربي قبل السير ، وعاشت في الأدب الغربي قبل الملاحم ،

ويؤيدنا في هذا الرأي " كراب " في قوله : " هكذا نرى أننا لا نبالغ حين نقول أن حكايات الجان نوع من القصص الشعبي أقدم تاريخاً من الملاحم ") [5] .
في " عائشة الخياطة " تتعدد مواضع التماس بين العالمين لتشمل كافة الموجودات : شجرة الكافور التي تنهض علي الأرض غاضبة علي شلبية عندما أفصحت لشكري وسعيد المتوكل : (رأى شجرة الكافور تقف من مكان سقوطها كما كانت كأنها لم تسقط أبداً ، فسقط مغشياً عليه)[6] ، هكذا وعي نفس المنوال نتبين مواضع التماس في تصرف الديك ، وفعل القط والحمار وكل الطيور والحيوانات التي قدسها المصريون ، وصنعوا منها آلهة للحكمة والجمال والموت والبعث والحساب والرياح والأعاصير والخير والشر .
الجان الذي يكلم البشر بلسانهم ويصنع لهم الخوارق ، ويحملهم علي بساط الريح للبلاد البعيدة في غمضة عين ، عابراً بهم البحار وطاوياً بهم المسافات الشاسعة ، أو غائصاً بهم جوف الأرضين السبع والبحور السبعة ، حيث يرون المدن المعمورة والمسحورة ، هذا الجان القادر لم يستدعه الراوي لموضع الرؤية السابقة بحذافيرها ، بل جعله محوراً للحكي : الأحداث تجعلنا نراه ولا نراه ، نسمعه ولا نسمعه ، نلمسه ولا نلمسه ، بمعنى آخر هو حفز حواسنا البشرية كي تتراوح بين الصدق والكذب، ونحن نجول معه بين الأماكن المهجورة : البوص والهيش ، الترع والمصارف والخرابات البعيدة ، السواقي الخربة والطرق التي لا يطرقها أحد ، المغارات المظلمة والليل حالك السواد وأصوات الطبيعة الغاضبة ، توتر البدن بغريزة الخوف والقشعريرة ، اللسان وهو يلهج بالأدعية والأذكار والأوردة التي تذخر بها الرواية عبر كثير من صفحاتها .
لم يبعد الراوي في عائشة الخياطة عن أرض الواقع الفردي للناس حيال هذا العالم ، حتى وهو يسلك الدرب الذي يعفي حكاياته العجائبية من الواقعية التي تجعلها تسير علي الأرض ، عندما يستنبت لها جناحين كي تحلق بهما عالياً في عالم الخيال ، فيخال المتلقي المعاشرة الجنسية بين الإنس والجن ، أو المرأة التي تدخل وتخرج من الحائط ، أو الأشجار التي تنام علي الأرض وتنهض واقفة ، أو الطيور والحيوانات التي تسلك سلوك وفعل الإنسان .. وهكذا .لكنه لا يلبث أن يطوي جناحيه عائداً ليوهمنا بواقعية خياله ، عندما يهبط أرضاً ونعيش معه بين البشر العاديين وهم يتكلمون ويأكلون ويشربون ، أو يتساءلون ولا يصدقون ، وعندما يسعون للبحث والتقصي ، وعندما ـ بسبب ضعفهم البشري ـ يتراجعون وينهزمون ويعودون متقهقرين للوراء ، لا يملكون الإجابة علي كل الأسئلة المؤرقة . نراهم أيضاً في أحيان أخرى قد صاروا ممسوسين بدرجة ما ، كأن الراوي يؤكد علي حيرة الإنسان وضعفه عبر كل العصور ، وأنه مهما اتخذ من وسائل دفاعية ـ مشروعة أو غير مشروعة ـ كي تحميه وتؤمنه بسياجها أمام الغيبيات التي لا يسعها وعاء عقله ، يظل دائماً محكوماً بعوامل الخوف والتردد وعدم الفهم في مواجهة الآخر / المجهول ، لهذا فإنه يلجأ للأحلام كي تصنع له واقعاً موازياً ، وربما وهو يفعل ذلك تدهمه الكوابيس المفزعة ، ويختلط الحلم بالواقع ، وتستبد به الهواجس والرؤى والهلاوس ، (أمَّا في الأدب الشعبي

العربي فهذه الحكايات تعكس أحلاماً قديمة لتطلعات الفرد العربي في تخلصه من بعض العوامل التي تعوق حصوله علي ما يريد من مجد وسؤدد ، فباستطاعة الإنسي الحصول علي ابنة العالم المجهول ذات القدرات الخارقة ، تطابق ما نجده في سيرة عنترة بن شداد من مغامرات عنترة المثيرة للحصول علي النوق العصافير ، والتغلب علي أشهر فرسان الجزيرة العربية وأعتاهم ، حتى تكون جائزته آخر الأمر ابنة عمه عبلة التي لا تمثل لا الحب فقط ، وإنما تمثل تحقيق معنى الخلاص من الرق ، ومعنى التغلب علي عقدة اللون ، ومعنى فك إسار الفارس العربي من قيود الطبقية المخيفة القاتلة التي تحكمت في مصائر الفرد العربي طوال العصر الجاهلي) (7) .

تتكئ الرواية في كثير من أحداثها علي الحوار الذي تختلط فيه الفصحى بالعامية دون فاصل ، وتقترب فيه مستويات النطق اللساني للجميع دون تميز أو خصوصية ، والحوار يبدو مفككاً مهتزاً ضعيفاً في بدايات الأحداث ، ثم يمضي فيما بعد متدرجاً في النضج حتى يبلغ ذروة الوجد الصوفي بلغته الشعرية رفيعة المستوى . ربما عانى الراوي من مشكلة حوارية فلجأ إلي هذا التدرج المتعمد وهو يخط حكايته ، وربما كان مضطراً اضطراراً وهو يلاحقنا بالسرد ألاَّ يتوقف عند عامية فلاَّحي السكاكرة الأقحاح بمستوياتهم المختلفة ، أو عند الفصحى المبسطة ، كأنما خصوصية العمل وطريقة تناوله هي التي استدعت مفردات الحوار ومفردات الرموز والإشارات والإيحاءات التي ينبئ عنها . كما أن الراوي قام بتفتيت الأحداث إلي جزيئات ، وفتت معها عنصر التشويق للمعرفة الذي هو عنصر أصيل في الحكاية الشعبية ، لكن مجموعة العناصر والجزيئات المنبثة في ثنايا العمل الروائي تظل منفصلة ، كل منها قائم بذاته ينتهي بانتهاء حكايته ، فالحكاية كما يحكي الراوي ليست حكاية واحدة ، لكنها حكاية تراكمية تتغير بتغير الراوي وتغير الزمن الروائي ، فما كان قد كان وليس هو ما يُحكى الآن ، ما أن ينقطع خيط الحكاية حتى نجده وقد عاد ممتداً مع حكاية أخرى ، هل هي عائشة الخياطة التي تكر الخيط وتوصله هكذا دوماً ؟ ، هل أفاد هذا التفتت التراكمي العمل أم أنه جعل المتلقي يتريث أو يلهث خلف الأحداث ؟ .

الزمن الروائي زمن مجهول غير محدد بتاريخ ، وشخوص العمل في معظمها شخوص نسائية ، ودور الرجال هامشي وتابع : (خط النسب الصاعد في الرواية خط أموي ، يغيب عنه دائماً الخط الأبوي ، وهو غياب متعمد من الراوي ، مما يؤكد رغبة الكاتب في هذا التالي :

أ ـ لا يوجد ذكر لأي سلطة كانت في الرواية : القرية بلا عمدة أو خفراء ولا أي شخص تدين له شخصيات الرواية بالولاء والطاعة .

ب ـ المجتمع الموجود بالرواية مجتمع زراعي ، فلاّحي بسيط ، ينتمي إلي الاقتصاد الطبيعي القائم علي العلاقة المباشرة بين المنتج وعناصر الإنتاج المباشرة " الأرض " ، ويكون إنتاج الأرض هنا بغرض الاستهلاك المباشر من المنتج نفسه ، حيث لا يوجد فيه أثر لمبادلة أو وسطاء يشترون أو يبيعون ، بدليل

أنه لا توجد علاقة بين قرية السكاكرة والمدينة ، فهي قرية مغلقة ، مقفولة علي ذاتها)[8].
يصل العمل عبر صفحاته الخيرة للذروة عبر مناجاة صوفية أو تراتيل روحية أو أدعية شعرية ، يوظف فيها صلاح والي قدراته وإمكانياته الشعرية ، فهو شاعر أصدر من قبل عدَّة دواوين شعرية[9] ، وهو واحد من الشعراء الذين ضاق عليهم عالم القصيدة الضيق فكتبوا مؤخراً الرواية بعوالمها الأوسع والأرحب .
وتظل لرواية " عائشة الخياطة " رغبتها الإنسانية في الامتزاج بالمجهول ، (وسواء كان الأمر نوعاً من الحلم أم كان إحساساً بالخوف علي ذهاب أيام السعادة ، أم كان أثراً من أثار الغيبوبة المخدرة ، فنحن نحب أن نضيف إلي هذه التفسيرات التي قدمها دارسو الأدب الشعبي لهذه الظاهرة البعد الإنساني الذي يتمثل في الشوق إلي قهر المجهول ، وجعله معلوماً طيعاً في خدمة الإنسان ، ليتساوى مع أصحاب القدرات الخارقة التي تصور الإنسان أنهم يعيشون معه في عالمه دون أن يراهم هو ، وإن كان ينسب إليهم كل الظواهر الخارقة التي تحيط به وتؤثر في حياته ، وهم الجان) [10] .
وأخيراً :
عائشة الخياطة رواية جديرة بالقراءة ومن ثم التأمل ، خاصة أنها تأتي بكل الأثواب القديمة بطرزها الشعبية الأصيلة ، تفكك خيوطها لتصنع منها ثوباً جديداً ، يحاكي العصر ويثير الدهشة . ويبقى السؤال :
هل نجح صلاح والي في أن يحيك لعائشة (الخياطة !!) ثوبها الروائي ؟ .
للمتلقي فقط حق الإجابة .

هوامش :

1- عائشة الخياطة - رواية " مختارات فصول " - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1997 م .
2 - نقيق الضفدع - رواية " الرواية العربية " - هيئة الكتاب - 1988 م .
3- ليلة عاشوراء - رواية " روايات الهلال - 1992 م .
4 - نفس المصدر (1) ص (30) .
5 - عالم الأدب الشعبي العجيب - فاروق خور شيد - مكتبة الأسرة 1998 م .
6 - نفس المصدر (1) ص (73) .
7 - نفس المصدر (5) ص (48) .
8 - مقال " قراءة في رواية عائشة الخياطة " حمدي سرحان - ندوة بنادي أدب فاقوس .
9 - صدر للمؤلف عدَّة دواوين : تحولات في زمن السقوط - تداعيات العشق والغربة - من أين يأتي البحر - الوطن والرؤيا .

10 - نفس المصدر (5) ص (49) .

الإرهـاب والشـعر

في الحرب التي دارت رحاها ضد الإرهـاب ، بعد أحداث الحـادي عشر من سبتمبر 2001 م ، والتـي مـا زالـت قائمـةً حتَّـى الآن ، وبـرغم تعـدد وتنـوع أشكالـها وطرقـها وخططـها وبرامج تنفيذها ومنفذوها ، كـان من أبرز وجوهـها ، مـا هو منها علي الصعيد الإعـلامي ..

ففـي حـين تقمـص الـرئيس الأمريكـي " بـوش " ، قائـد التحـالف الـدولي لمكافحـة الإرهاب ، شخصية أحد أجداده من رعـاة البـقر " الكـاو ـ بـوي " ، عنـدما أعلـن عبر وسائل الإعلام : أن (" بن لادن " مطلوب حياً أو ميتاً) ، مطلـقاً ذلك الشعار الذي كان يعلن عنه ـ في الماضي الأمريكـي القريب ـ من قِـبل السلطات الأمريكيـة عند مطاردة المجرمين أو الخارجين علي القانون . ولابد أن " بوش " آنئذ ، كـان يقصد مخاطبة الشعب الأمريكي قبل شعوب العالم بهذا الشعار القديم ، ذلك أنـه ـ بلا ريـب ـ أدرك أن استحضـار الماضـي الأمريكـي بكل زخمـه وحيويتـه ، ولـو بهـذا الشـعار الواضـح ، المقتضب والحاسـم ، لابـد وأن يكـون لـه تأثـير إيجـابي علـي الشعب الأمريكي ، بعد الصدمة القاسـية التـي خلفـتها الطـائرات الانتـحارية ، مـع ما خلفـته من دمار وقتلى وأشلاء في مبني التجارة العالـمي والبنـتاجون ..

وعلـي الطرف الآخر كـان " بـن لادن " ـ المطلـوب حيـاً أو ميتـاً ـ والمختبـئ فـي جبـال أفغانسـتان ، يطل مـن خـلال شرائط الفيـديو عبـر وسـائل الإعـلام ، مخاطبـاً العرب والمسلمين من قبل ، ومخاطبـاً العالم من بعـد ، ومستحضـراً ـ أيضـاً ـ عبر خطابه ذلك الماضي العربي البعيد .. وإذا استحضر " بن لادن " ماضـي العرب ، فلا بد أن يستحضر في مقدمته ديوانـهم البـارز : الشـعر .. وهذا ما فعلـه .

كـان الشـاعر العربـي فـي الماضـي يتقدم صفوف المقـاتلين ، مـزوداً بعـدَّةٍ لا تقل أهميتها عن الخيل والسيف والرمح ، وكل آلات الحرب القديمة ، ألا وهـى " أبيـات الشـعر " التـي ينظمهـا بمـزيج مـن ألـوان الحماسـة والفخـر والعـزَّة والفروسـية والشـجاعة ، وكـل ألـوان الطيـف الأخـرى التـي تـدفع بالمقاتلـين قـدماً فـي معمعـة المعـارك وتحت غبارها ..

يقول " ابن لادن " في نهاية إحدى خطبه (1) ، وهو يحيِّي هؤلاء الذين نفَّـذوا غارات سبتمبر الرهيبة :

إني لأشـهد أنهـم من كـل بتَّـار أحـدُّ
يا طالما خاضوا الصعاب وطالما صالوا وشدُّوا
شتَّان شتَّان بين الذين لربهـم باعوا النفوس
الباسمين إلي الردى والسيف يرمقهم عبوسا
الناصبين صدورهم من دون دعوتهم تروسا
إن أطبقت سجف الظلام وعضنا ناب أكـول
وديارنا طفحت دماً ومضى بها الباغي يصول

ومن الميادين اختفتْ لمع الأسنَّـة والخيول
وعلتْ علي الأنات أنغام المعازف والطبول
هبَّت عواصفـهم تدك صروحه وله تقـول
لن نوقف الغارات حتى عن مرابعنا تـزول

أمَّا " أيمن الظواهري " ، الساعد الأيمن لـ " ابن لادن " ، فإنـه أيضاً فـي كتابـه الأخيـر الـذي نُشرت فصولـه قبـل اختفائـه ، والـذي أطلقـت عليـه وسـائل الإعـلام " الوصيَّة الأخيرة " (2) فإنه يضمنه أيضاً الكثير من أبيات الشعـر . مرَّة يستشـهد بأبيـات لـ " محمـود سـامي البـارودي " (1839 - 1904) ، فـي معرض حديثـه عن نقل المعركة علي أرض العدو ، الذي ربما يكون نحن دون أن نـدري ، يقـول فيها :

فيا قلبُ صبراً إن جزعت فربما
جرت سنحا طير الحوادث باليمن
فقد تورق الأغصان بعد ذبولها
ويبدو ضياء البدر في ظلمة الوهن

وحين يتحدث عن فلسطـين ، فإنـه يستشـهد بالشاعـر " هاشم الرفـاعي " حين يقول :

حيـفا تئن فهل سمعت أنين حيـفا
وشممت عن بعد شذا الليمون صيفا
تبكي فإن لمحت وراء الأفق طيـفا
سألته عن يوم الخلاص متى وكيفا ؟

والحقيقة أن هاشم الرفاعي (1935 - 1959) الملقب بفـارس العربيـة والإسـلام ، كان دائم الحضور بشعره علي خطاب الجماعات الإسلامية جميعها بـلا استثناء ، المعتدلة والمتطرفة ، التي تتخذ من صحيح الدين نـهجاً ودستوراً لـها والتـي تحـيد عن هذا المنهج ، بل أن بعض هذه الجماعات ـ علـي غير الحقـيقة ـ نسبته إليها عن قصـد . يقـول " عبد الـرحيم الرفـاعي " ـ شقيـق الشـاعر ـ فـي كتـــابه (3) عنـــه :

" الحقيقة التي لا مراء فيها أن شاعـرنا الفتـى كـان مـن أولئـك النفر مـن الشعراء الذين أمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد مـا ظلمـوا ولا نزكي علي الله أحداً، ذلك أن الشاعر الراحل ، الذي رحل ولم يتجاوز عمره الرابعة والعشرين إلاَّ بقليل ، ولـم يتجـاوز عمـره الأدبـي العشر سنوات إلاَّ بقليل أيضـاً .. هذا الشاعر الشاب لـم يكن يشغـله شـيء عن قضـايا وطنـه مصر ، فـي إطـار مـن العروبة والإسلام ، بمعنى أنه ينظر إلي وطنه مصـر علـي أنهـا جزء لا يتجزأ من العـالم العربي ، الذي هو الآخر بدوره قلب العـالم الإسلامي .. " .

ويضـيف أيضـاً :

" بل يتعدى ذلك إلي مناصرة الإنسان في أي زمان ومكان ضـد طـاغوت الإنسـان وجـبروته " .

ولقد كانت قصيدته الشهيرة " رسالة في ليلة التنفيذ " تتردد علي ألسنة المناضلين والثوَّار ، التي يقول فيها :

أبتاه .. ماذا يخط بناني والحبل والجلاَّد منتظران
هذا الكتاب إليك من زنزانة مقرورة صخرية الجدران
لم تبق إلاَّ ليلة أحيا بها وأحس أن ظلامها أكفاني
ستمر يا أبتاه لست أشك في هذا وتحمل بعدها جثماني

ولا أدري ، هل يردد القتلة والطواغيت وعتاة الإرهاب في شتَّى بقاع الأرض ، شيئاً من الشعر ، في خطابهم الإعلامي لشعوبهم ، ليزكُّوا به شهوة القتل والإرهاب المتأصلة في نفوسهم ؟! ، هل تتخطَّى أبيات الشعر الحاجز الذي يفصل الفن والأدب عن القتل والإرهاب ؟ ، هل تمتهن علي شفاه أبطال المجازر والمحارق والخرائب والمقابر الجماعية قديماً وحديثاً ؟ ، هل فعل هذا " نابليون " وهو يجتاح مدن وقرى مصر والشام ؟ ، هل فعل هذا "هتلر" وهو يغزو مدن أوروبا وشمال أفريقيا ؟ ، هل فعل هذا " سلوبودان ميليسوفيتش الصربي وهو يجتاح البوسنة والهرسك ؟ ، هل فعل هذا " شارون " وهو يجتاح الخليل ورام الله وغزَّة وغيرها من مدن الضفَّة والقطاع في فلسطين المحتلة ؟ ..

أسئلة لا تحتاج بالقطع لإجابة شاعرية . ففي الوقت الذي كانت فيه قوَّات الاحتلال الإسرائيلي تقتل الرجال والأطفال والنساء ، وتهدم البيوت ، وتجرف الأرض المزروعة وتقتلع الأشجار الفلسطينية .. كان " شارون " واقفاً علي خشبة مسرح " جيروزاليم " بالقدس ، يُلقي بصوت جهوري شعراً ـ في أمسية شعرية ـ من ديوان " أغنية العقل العظيم " للشاعر اليهودي المتطرف " يوري زيفي " ، الذي ولد في هولندا عام 1896 م لأسرة يهودية متعصبة ، وهاجر إلي إسرائيل عام 1924 م .. هل يصدق العقل هذا ؟ ، لا يهم أن يصدق أحد طالما أن القاتل صدَّق نفسه ووجد من يصدقوه ، هؤلاء الذين صفقوا له بهستريا ، قال الكاتب(4) الذي نقل الواقعة أنها هستريا تشبه هستريا الزمن الهتلري ، وخوار الثور علي خشبة المسرح بصوت الشاعر ـ حتماً ـ كان يطربهم وهو يترنم بقصيدته " جيروزاليم محاطة بالأسوار " :

" جيروزاليم محاطة بالعرب
يريدون تحويلها لخرائب
تحت أنقاضها يرقد آبائي " .

أو بأبيات من قصيدته " حقيقة واحدة لا حقيقتان " ، والذي يهذي فيها قائلاً :

" علمكم حاخاماتكم أن الأرض تشترى بالمال
علمكم حاخاماتكم أن الأرض تُحفر بالفأس
وأنا أقول لكم أن الأرض تقهر بالدم .. " .

وهكذا يفعلون بالشعر دون حياء ، ولماذا يستحون وهم يسرقون الحياة ويغرقونها في الدم ، دون أن تهتز لهم شعرةً واحدةً ، ويجدون في المقابل جمهوراً من المصفقين ؟! ..

هوامش :

(1) قناة الجزيرة القطرية .
(2) جريدة الشرق الأوسط ـ ديسمبر 2001 م .
(3) هاشم الرفاعي فارس العروبة والإسلام ـ عبد الحميد الرفاعي ـ دار القلم " الزقازيق " .
(4) جريدة القاهرة في 2 ـ 4 ـ 2002 م .

الرؤية السياسية عند نجيب محفوظ

" العبقرية صبر طويل " .. تلك هي المقولة التي تصدرت الكتاب الذي أ صدرته وزارة الثقافة المصرية بمناسبة حصول " نجيب محفوظ " علي جائزة نوبل ، وهي مقولة تنطبق بحق برهاناً ودليلاً علي كاتبنا الكبير ورحلته الإبداعية الثريَّة ، الممتدة بمحصلة مشواره الأدبي والفني لأكثر من نصف قرن .

عوالم نجيب محفوظ متعددة وتنطوي علي أبعاد كثيرة ومثيرة للدهشة والتأمل والحيرة ، ولذا كان واجباً علي كل من يتصدى لها أن يحتشد بقدر من الجرأة والدقة والتمحيص ، لأن هذه العوالم الزاخرة بالفن الصادق و البديع ، قادرة علي البوح بالكثير من الأسرار والمعاني ، ولأن هذا المقال معني بالرؤية السياسية عند " نجيب محفوظ " يكون السؤال المشروع بداية هو : هل كان " نجيب محفوظ " سياسياً مهمُوماً في إبداعه ؟ ، ومحاولة الإجابة المشروعة أيضاً علي هذا السؤال ، تستلزم الدخول لعوالمه وإبداعه الأدبي الذي يتميز بكونه مرتبطاً بالعلاقات الاجتماعية بين الناس خاصة ، وقضايا الوطن عامة ، بل ويتعدى ارتباطها ذلك بالقضايا الإنسانية التي تهم البشر علي سطح الأرض ، وأعماله التي تبلغ درجة عالية من الحِس المتوهج والوعي المرهف بكافة هذه القضايا في الواقع المعاش .

لقد كانت الرؤية السياسية للقرارات الثقافية تدعو الجماهير بالضرورة الملحَّة للمشاركة في صنع هذه القرارات ومن ثم استهلاكها ، وتدعو أيضاً للتقارب بين المبدع والمتلقي ، بتصور أن الأدب الجاد يستطيع أن يكون مؤثراً بفنه الخالص ، وبدرجة كبيرة تعجز عنها كثير من وسائل الاتصال الأخرى ، هذا برغم الثورة الهائلة التي صاحبت وسائل الاتصال مؤخراً ، وبالرغم أيضاً من الدعوة المتكررة للفصل بين الحلم والواقع ، وبين الروائي والسياسي ، وبين الواقع المعاش وخيال المبدع . علي ذلك فإن السياسة التي تصل بوسائلها لكافة مناحي الحياة ، تجعلنا ننظر لأي عمل أدبي ، مهما تعددت أشكاله ومضامينه ، بأنه سياسي بدرجة ما ، أو بمعنى آخر تلك العلاقة المعقدة بين الإبداع الأدبي من ناحية وهموم المجتمع من ناحية أخرى ، ومما هو معروف عن " محفوظ " أنه طوال رحلته الإبداعية لم يوظف إبداعه في خدمة شعار سياسي سلطوي ، أو أنه قد أطَّر إبداعه بالحجم الذي يخدم غرضاً سياسياً لأجل مطمع أو مطمح شخصي ضيق الأفق ، كما لم يعرف عنه أيضاً أنه قد تبنَّى دعوة عنصرية أو متطرفة ، بالرغم من وقوع الكثيرين من أبناء جيله في هذا الشرك ، خاصة أدباء المنظومة الاشتراكية التي تفككت وانهارت بانهيار الاتحاد السوفيتي ، لقد ظل " محفوظ " مؤمناً بأهمية الدور الذي يجب أن يلعبه الأدب في المجتمعات النامية .

وعن تطور العلاقة بين السياسة والأدب العربي ، يحضرني الآن موقف الرائد " محمد حسين هيكل " ، الذي رفض وضع اسمه وهو السياسي البارز علي روايته الشهيرة " زينب " ، مخافة الانتقاص من قدره في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الرواية العربية ، التي كان لمحفوظ فيما بعد ، دوراً رائداً في تطورها

ووصولها للعالمية ، بعد جيل الروَّاد : عباس العقاد وطه حسين وإبراهيم المازني والحكيم وغيرهم .
أعمال " محفوظ " فيما سمّي بالمرحلة الفرعونية كانت : " عبث الأقدار" 1939 - رادوبيس 1943 - كفاح طيبة 1944 ، وفيها يدعو إلي معاني الحرية والتطلع لأمجاد الماضي من أجل الحاضر ، والنضال ضد المحتل ، وإدانة سياسات المستعمر التي تؤمن بالقوة والبطش والاستبداد ، لذا كان الغرض الرئيسي للطرح التاريخي الروائي هو مصر وتحررها ، والحقيقة أنها لم تكن رؤيته فقط وهو الذي نشأ في كنف ثورة 1919 ، بل كانت رؤية أبناء جيله من الروَّاد أيضاً .
ثم جاءت مراحل إبداعه التالية : الواقعية (1945 - 1967) بمرحلتيها الأولى والثانية ، الأولى التي يتناول فيها مصر قبل ثورة يوليو 1952 والتي بدأت بروايته " القاهرة الجديدة " 1946 ، والثانية التي تتناول مصر بعد الثورة والتي بدأها بـ " اللص والكلاب " 1961 ، ثم المرحلة الأخيرة من مراحل إبداعه التي بدأت بالمرايا 1971 . ولقد أُتِّهم " محفوظ " ظلماً بالتناقض بين موقفه السياسي في رواياته وموقفه السياسي المعلن ، وهذا ما كان ينفيه دوماً داعياً القارئ الذكي للفهم الصحيح . روايات قبل الثورة (الثلاثية - بداية ونهاية .. وغيرها) لم تكن مؤيدة للحكم القائم ، وبعد الثورة (ميرامار - اللص والكلاب - ثرثرة فوق النيل .. وغيرها) يمكن أن تضع " محفوظ " في خانة المعارضة لـ " عبد الناصر " ، وهكذا استمر الحال في عهد " السادات " الذي لم تنشر بعض أعمال " محفوظ " في عهده بصحيفة الأهرام لأول مرَّة ، ويؤكِّد " محفوظ " أنه كان دائماً ما يحمل علي السلبيات ويؤيد الإيجابيات ، الثلاثية (بين القصرين - قصر الشوق - السكرية) تتناول الأحداث السياسية من 1917 حتى 1944 ، والحركة الوطنية بقيادة " سعد زغلول " ، وأقرب الشخصيات ميلاً لشخصية " نجيب محفوظ " في الثلاثية هي شخصية " كمال عبد الجواد " وابن شقيقه " أحمد " ، أما " السيد أحمد عبد الجواد " : (سي السيد) كان رجلاً وطنياً يجيش قلبه بحب الوطن ، والثلاثية كعمل ضخم يؤكِّد علي البعد الوطني للوفد و " سعد زغلول " والشعب بالمظاهرات والعمل السري والتضحيات من أجل الاستقلال .
في " ثرثرة فوق النيل " تتطاير الكلمات من الأفواه ساخرةً وناقدةً الواقع ، المخدر مبرر وطريق للسياسة وعالمها والأزمة الناشئة عن اصطدام الحلم بالواقع . وفي " السمان والخريف " تتجلى أزمة الوعي السياسي في فترة الثورة . وفي " يوم مقتل الزعيم " يأتي التناقض أيضاً بين الأحلام والشعارات والفساد والتراوح بين الجانب السياسي والاجتماعي من خلال النقد اللاذع للأوضاع القائمة .
ليس هذا علي المستوى الروائي فقط ، بل يتجلّى أيضاً في إسهاماته في القصة القصيرة :
همس الجنون - دنيا الله - بيت سئ السمعة - خمارة القط الأسود - تحت المظلة .. وغيرها . في هذه المحطات القصصية القصيرة التي توقف فيها قطار إبداعه بين

أعماله الروائية ، أدان فيها قوى الشر والبطش والقهر ووحدانية السلطة ، وأشار لحركة الجماهير الرافضة لتجاوز الأجهزة القمعية ، يقول " نجيب محفوظ " :
" أنا أعيش دائماً في الخانة التي تلتقي فيها الديمقراطية بالعدالة الاجتماعية ، وأنا أدافع دائماً عن هذا الرأي " .
وأشار إلي أنه في بداية ثورة يوليو 1952 تعرف علي الديمقراطية من أهدافها وليس بذاتها ، لكنه كان أكثر الناس الذين أسفوا لتأجيل تطبيقها ، وأكد أن رواياته وقصصه القصيرة خير دليل علي ذلك ، فهي تدور حول عزلة المثقفين بسب عدم المشاركة السياسية ضد عيوب النظام الشمولي ، كما في القصتين : " الخوف " و " الانتظار " ، ولقد ظل واعياً لما حرم منه الشعب طوال تاريخه ، فالثورة حققت إنجازات رائعة في صالح الفقراء : التعليم والصحة والتصنيع وارتفاع مستوى المعيشة ، هذا لم يحدث في مصر طوال تاريخها السابق علي الثورة ، هذا كلّه جعله يقبل تأجيل الديمقراطية نظير هذه الإنجازات ، فهذه المكاسب كبيرة جداً ، لم تشهدها مصر في عصور الديمقراطية الحقيقية التي مرت عليها ، بسبب ظروف الاستعمار وفساد الحكم وضغط الحركة الوطنية ، لكن " عبد الناصر " الذي اكتوى بنار الأجهزة فيما بعد ، جعل " محفوظ " يدرك أن الديمقراطية ليست مفيدة كنظام في حد ذاتها ، بل هي القيمة التي تحفظ جميع القيم الأخرى ، سواء في السياسة أو التنمية أو الإنتاج ، هذا كله تعرض للخطر بسبب انتهازية الأجهزة الفاسدة ، وعندما حدثت نكسة 1967 أدرك بجلاء أنه لا نهضة ولا حياة حقيقية بلا ديمقراطية ، بل إن " عبد الناصر " نفسه كادت إنجازاته أن تذهب ضحية للحكم الفردي ، لكل هذا رحّب " محفوظ " باتجاه " السادات " نحو فتح النوافذ لبناء الديمقراطية . وعن الديمقراطية يقول " نجيب محفوظ " :
" الديمقراطية عملية تاريخية طويلة المدى بمؤسسات ترسخ باستمرار ، وتمتد للثقافة والتربية والأسرة حتى تصل للفرد في سلوكه اليومي مع الآخرين ومع نفسه ، إنها عملية تحتاج لتربية طويلة " .
وقال أيضاً :
" أنا احتفظ باستقلالي السياسي من أجل أدبي حتى أستطيع أن أرى السلبيات والإيجابيات بوضوح " .
وعود للسؤال : هل كان نجيب محفوظ مهموماً سياسياً في إبداعه ؟ ..
إن هذه الإطلالة علي رؤيته السياسية مجرد محاولة للإجابة والفهم .

مصادر ومراجع :

1 ـ أعمال الكاتب الكبير الروائية والقصصية .
2 ـ أعداد من مجلة إبداع ـ الهلال ـ أدب ونقد ـ القاهرة .
3 ـ أعداد من الصحف اليومية والأسبوعية .

4 ـ ثلاثية نجيب محفوظ ـ الأب جاك جوميه ـ مكتبة مصر 1958.
5 ـ نجيب محفوظ يتذكر ـ جمال الغيطاني ـ أخبار اليوم 1987 .
6 ـ الرؤيـة والأداة " نجيـب محفـوظ " ـ د . عبـد المحسـن بـدر ـ دار المعـارف 1978 .
7 ـ تأملات في عالم نجيب محفوظ ـ محمود أمين العالم ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1958
8 ـ نجيب محفوظ " نوبل 1988 " ـ وزارة الثقافة المصرية ـ 1988 .

" قلعة الجبل "* لمحمد جبريل

تأتي " قلعة الجبل " للمبدع محمد جبريل بعد روايتين له من قبل استلهم فيهما التراث ، هما : " إمام آخر الزمان " و " من أوراق أبي الطيب المتنبي " .
راوي " قلعة الجبل " هو راوي التاريخ ، هو الفنان قبل أن يكون المؤرخ ، هو يتناول سيرة السلطان خليل بن الحاج أحمد الملقب بأساس الدولة ، وما جرى له مع عائشة بنت عبد الرحمن القفاص من عامة الشعب ، العلاقة بين القصر والكوخ ، بين القلعة والشيخونية بحدرة الحنَّة .
كان السلطان من عادته أن ينزل من قلعة الجبل في موكب يركب فيه ركوباً ظاهراً للناس كافة ، عندما رأى ذلك الوجه وأعاد النظر إليه ، أدرك في قرارة نفسه أنه وجه ما يكون مثله إلاَّ في الجنة ، إنه وجه عائشة ، الوجه الذي أخذ بمجامع قلبه وعقله ، وافتتن به فجعله " خليلاً " آخر .
صار جـُل همه كيف يستحوذ عليه .
إنها القصة الأبدية : البنت ذات الجمال الحوشي الفتَّان الذي ينبت من القاع ، من الحي الشعبي ، فيفتتن به عند القمة الأمير أو السلطان . لكننا هنا لسنا أمام القصة بذاتها ، لكنه العمل الفني الذي يجعل من عائشة (المرأة / الحلم البعيد المنال) فكرة ، ربما هي مصر أو الشعب أو الروح أو الهدف المنشود ، هي الأمر الذي يجعل من السلطان خليل سلطة كل زمان ومكان .
استلهام التراث في " قلعة الجبل " ليس بقصد العودة للماضي فحسب ، لكنه الغوص في الحاضر أيضاً ، راوي التاريخ هنا والذي حاول أن يبدو محايداً ومنصفاً لكل شخص من شخوصه لم يكن محايداً تماماً ، ليس كما قال د . ماهر شفيق فريد في دراسته المرفقة بالرواية ، فنحن نتعاطف أحياناً مع بعض الشخوص وأحياناً أخرى غير ذلك ، وتتعدد أصوات الحكي وتتنافر بحسب منهج القص .
نتعرف بالسلطان خليل ونحن نقرأ " فصل في نشأة السلطان خليل " و " فصل في صعود خليل بن الحاج أحمد إلي منصب السلطان " , " فصل فيما نسب إليه " .. وهكذا ، أصوات تدافع وأصوات تتهم في صورتين متناقضتين تنتهيان بالقارئ ألاَّ يكون محايداً . وفي اعتقادي أن راوي التاريخ هنا أراد أن يؤكد أن الحقيقة مهما كانت حقيقتها فهي نسبية ، وأن الخير والشر ليسا بلونين فقط ، الأبيض او الأسود ، لكن بالتأكيد بينهما ظلال .
من قبل أكد " لورانس داريل " في رباعية الإسكندرية نفس الشيء ، كل صوت في الرباعية يروي الأحداث بمنظور مغاير تماماً لما ترويه الأصوات الأخرى ، إنه اختبار لحس القارئ وحدسه وذكائه . إنه ولع محمد جبريل بهذا المنهج ، وأظنه هنا ضرورة حتمية في تناول هذه النوعية من الروايات ، هو ألزم ما يكون لاستلهام التاريخ وروايته ، أتذكر الآن ما قرأته بشأن إعدام السيد محمد كريم علي يد الفرنسيين إبَّان الحملة الفرنسية علي مصر ، لقد قرأت روايتين

متناقضتين تماماً ، تقول إحداهما أنه رفض أن يفتدي نفسه بالمال قائلاً : " لن يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ " ، والأخرى تقول أنه كان يستصرخ الناس ويحثهم علي جمع المال لإنقاذه من الموت ، روايتان مختلفتان للتاريخ القريب بالرغم من أن السيد محمد كريم شخصية تاريخية عامة .. المهم ، نعود لأساس الدولة والسلطان خليل ولعائشة بنت القفَّاص ، إنه يدعوها فتأبى ، يختفي زوجها " النسَّاخ " أو يقتل ، نحن في حيرة ، هو الحي الميت ، يدعو أباها ويستوظفه ثم يقتله ، ثم يقتل خالها محروس القليوبي الجزَّار بالحسينية ، ويقتل الشيخ عاصم ندا الذي لاذت به ، ويقتل قاضي الشافعية الذي حاول إنصافها ، حتى الخليفة لم يسلم من بطشه ، كذلك زوجته خون جنات .. سلسلة من الجرائم ـ كلما زاد تعنتها ـ لأناس كل جريرتهم أنهم يمتون لها بصلة قربى ، أو أناس كل جريرتهم أنهم أرادوا ، بشكل أو بآخر ، بحسن نية أو بسوء نية ، مساعدتها وتخليصها من قيود السلطان ، إنه الدهاء السياسي ، الترغيب ثم الترهيب ثم العقاب ، جرائم القتل التي يتم ارتكابها بخسَّة ونذالة باسم القانون ، أي قانون ؟ .. قانون السلطة الغاشمة .

القصة بسيطة التركيب ، لكنها غنيَّة بآلاف التفصيلات ، نحن مع الراوي في القلعة وأحياء القاهرة ، مع الناس في حياتهم بدقائقها ، في حوانيتهم ومع حرفهم وتقاليدهم وعاداتهم ، صورة ذلك العصر بأكمله ، شريط زمني في توال سريع دون إملال أو إسهاب بلا داع ، لغة بسيطة واضحة المعنى تعتمد علي التقطيع والفلاش باك والهارموني ، هو يستفيد من كل الفنون الحديثة ، بعض الألفاظ ـ بحكم تاريخية العمل ـ لم تعد مألوفة علي أذن القارئ ، وربما غاب عنه ما تعنيه من دلالات ، مثل " بشخانة " و " الجندرمة " .. وغيرها ، هل من الصواب للراوي أن يفسرها من خلال سياق السرد أم يلجأ للهوامش ؟ ، أم يتركها كما فعل جبريل لتعطي إحساساً بزخم الواقع التاريخي المعاش آنذاك .

تمضي الرواية فلا يزيد تمنع عائشة إلاَّ سوء طبع السلطان وطغيانه ، إنه لا يكف ، إنه يعصف بالأبرياء من سواد الناس ، أسرة عائشة ثم الآخرين . يبقى التساؤل الذي طرحه دز شفيق عن مدى تأثير انصياع عائشة ، إن حدث ووافقت هوى السلطان ، علي مجمل سلوكياته ؟ ، هل تتواري بذرة الشر وتفنى لتفسح المجال لنبت خيَّر ؟ .. الرواية تجيب بعدم الظن ، هكذا فهمنا ، مشكلة العمل أساسها وهم استبد بالسلطان خليل ، وهم خاطئ ، شأنه شأن كل الطغاة الذين يعتقدون أن السلطة ببريقها ورجالها وسلطانها وقوتها ونفوذها قادرة علي كل شئ حتى ولو بدا مستحيلاً ، ما بالك بقلب امرأة من عامة الشعب اسمها عائشة وأباها قفَّاص ؟ . منظور الخلق / القيم للشعب تجسده عائشة سلوكاً وقولاً بعفوية محببة ، عائشة لم تضعف للحظة واحدة ، وإن كنت أحبذ لو أفسحت الرواية مساحة أكبر لوصف ما آل إليه حال عائشة في حدرة الحنة خاصة تلك الفترة التي غاب فيها كل عوائلها (امرأة وحيدة وأم عجوز) ، الضمير الجمعي الذي تحرك في ثورة شعبية ليخلصها ويحررها من وراء الأسوار هو روح الشعب الوثابة التي لم تهمد عزيمتها ، ولم يزدها بطش السلطة إلاَّ تصميماً وعناداً . تأتى المواجهة الأخيرة

بين عائشة والسلطان ، ذلك بعد تهريبها واختفائها لفترة ثم ظهورها فجأة ، وتأتي نهاية السلطان خليل المأساوية منطقية تماماً ، هو لم يقل كل ما عنده ، ولم تكن عائشة قد أبانت كل ما بنفسها ، خنجر مسموم يتجه لغايته : صدر السلطان ، عائشة تعود ، إذاً فقد عادت روح الشعب أيضاً ، لا يهم هنا من صوَّب الخنجر أو قتل ، لكن القتيل هو الطغيان الذي تدحرج علي سلمات خمس . هل مات السلطان خليل وهو ما زال يحب عائشة ؟ ، الجواب يقول أنه لم يكن حبَّاً بقدر ما كان رغبةً جنونيةً في التملك ، " الكعكة في يد اليتيم عجبة " .. هكذا يقول المثل الشعبي ، لم تكن عائشة " كعكة " سهلة الهضم ، كانت لعنة الشعب التي ترصدت للطغيان وانطلقت صوبه ، لم تتركه إلاَّ فتاتاً وعصفاً مأكولا .

الراوي اعتمد خطاً واضحاً منذ البداية للنهاية ، لم يحد عنه ، لم تستهوه أحداث كثار يذخر بها العمل ، كان بإمكانها أن تستدرجه وتغويه ، لا تزيّد في العمل ولا افتعال .

أخيراً .. لقد أبدع الكثيرون في مجال الرواية التي تستلهم التاريخ ، العقاد في تراجمه ، طه حسين ، توفيق الحكيم في " محمد صلى الله عليه وسلم - سيرة حوارية 1936 " ، عبد الحميد جودة السحار ، علي أحمد باكثير ، سعد مكاوي ، إدوارد الخراط ، جمال الغيطاني .. وغيرهم .. كتبوا عن التاريخ واستلهموه .

اتفق مع د . شفيق أن أفضل هذه الأعمال هو " السائرون نياماً " لسعد مكاوي ، والزيني بركات " لجمال الغيطاني ، و" أضلاع الصحراء " لإدوار الخراط ، و" قلعة الجبل " لمحمد جبريل . واعتقد أن سبب التفضيل هو ما تتميز به من فنية عالية وحرفية كتابة واعتماد أدوات الفن الحديث .

تحية للمبدع محمد جبريل ، ومزيدا من الإبداع الأدبي ، لقد أهدى المكتبة بحق إضافة فنية واعية ترسخ من أقدام هذا الفن الذي يستلهم التاريخ واقعاً والواقع تاريخاً .

* قلعة الجبل - رواية محمد جبريل - روايات الهلال - العدد 506 .

(نبـــيه سرحـــان)
خيانة أم ضعف انتماء أم جنون ؟

منذ عدة سنوات كتب د . يوسف إدريس في مفكرته الأسبوعية بالأهرام مقالاً بعنوان " أديب من بلدي " ، أشار فيه للشاعر " نبيه سرحان " الذي يعيش في إسرائيل ، وأشار إدريس في مجمل مقالته لوضع أدباء الستينيات ، ومدى انتمائهم للوطن في هذه الفترة التاريخية التي كانت تمور بعوامل المد الثوري الجامح لثورة يوليو 1952، والتي انكسرت بهزيمة يونيو من العام السابع والستين ، ثم دلل علي ضعف الانتماء لدى البعض مستشهداً بهذا الأديب الذي ترك وطنه وهرب إلي إسرائيل ، ولست في معرض تفنيد محتوى المقالة لأن الكثيرين من أدباء تلك الفترة تولوا الأمر وردوا عليها فيما يخصهم .

في الماضي وأنا في طفولتي بالمرحلة الابتدائية ، كنت أسمع صوت نبيه سرحان يلقي أزجالاً وأشعاراً في إذاعة إسرائيل العربية ، أشعارا تتميز بمصريتها الشديدة وشعبيتها ورموزها ومفرداتها الريفية ، كان إلقاؤه المميز للشعر بالعامية المصرية يجعلني أخمِّن أنه ليس بإسرائيلي ، أو حتى بيهودي مصري ممن هاجروا لإسرائيل بعد قيامها ، حتى قرأت مصادفة مقالاً في مجلة " الدوحة " التي كانت تصدر من قطر لعدة سنوات ثم توقفت ، بقلم الكاتب الكبير الساخر " محمود السعدني " بعنوان " وجوه من الذاكرة " ، يتحدث فيه عن الأدباء الذين كانوا يلتقون سوياً بمقهى عبدالله ، ذلك المقهى الشهير بميدان الجيزة قبل إزالته ، كانوا كلهم تقريباً من مشاهير الأدب والفن في ذلك الوقت ، أشار في مقاله لأديب كان يجلس معهم ويكتب أزجالاً جميلة بالعامية ، ويشاركهم النقاش في كافة ما يتعرضون لها من قضايا عامة ، إلي أن جاء يوم اختفى فيه فجأة من بينهم ، وكانت صدمتهم الكبرى عندما سمعوا صوته غي مصدقين من إذاعة إسرائيل ، يلقي الشعر ويلقب نفسه بـ " ابن الريف " في برامج شبه يومية ، بدا الأمر وكأن إذاعة إسرائيل العربية قد وجدت ضالتها في هذا الشاعر المصري في وقت كان عداؤها لجمال عبد الناصر ومصر في ذروته .

كان هو نبيه سرحان المصري العربي المسلم ، ابن قرية " البيروم " ، نفس القرية التي ينتمي إليها " يوسف إدريس " بمحافظة الشرقية ، وكانت المفاجأة الأخرى لي بصفة شخصية أن أخاه " لمعي سرحان " يعمل معنا في نفس المدرسة التي كنت آنذاك أعمل بها معلماً ، وأنه يحفظ أشعار أخيه عن ظهر قلب ، ويرددها بسهولة من دواوينه التي يعرفها وهي : " شاعر بدون عنوان " و " ثمن العذاب " و " مدد يا واد .. مدد يا بت " .

وفي الأبيات التالية التي ألقاها عليَّ أخوه ، يشير الشاعر " نبيه سرحان " لاسم زوجته " نبوية " وحماته " زينب " وحماه " عبد السلام " صانع " الحصير " بكفر الحجايزة التي تقع علي بحر البقر بمركز فاقوس .. يقول :

(يا بيَّاعين الصبر ما تغلُّوش علي الشاري

اتهز يا توبها الحبر .. جاها الخبر
أصل ابنها كان في سفر
لا مات طبيعي ولا انتحر
طلع في قلبه مخزن طق انفجر
يا رابعة الموال أنا مركبي في النيل صبحت بلا سحر
يا بياعين الصبر ما تغلوش علي الشاري
امتدي يا عيدان السيسبان
يا طالع الأحزان في عز الليل
يا وابور الساعة 12 مش عارف الساعة كام
هاتي ابنك يا ضنايا وإحنا في شهر الصيام
وأقولك إيه يا زينب نشف دمي الكلام
بحر البقر يا عيني م النيل شايل آلام
نبوية وخبريني وشفتي إيه كمان
شفت النهار يا جوزي كأنه ألف عام
شفت أبراج الحجايزة بتبكي ع الحمام
اللي فات ع المزارع ومارماشي السلام
يا وابور الساعة 12 مش عارفة الساعة كام
عبد السلام يا خلّي ابنك ما هوش شهيد
راح ورا ناس يا قلبي فاكرهم أجاويد
راح يهتف بالضماير تاه وكان النشيد
راح يجيب البشاير سقط بعيد بعيد
يا صريخ كل النوارج عبد السلام فقير
لا عنده خدَّادية ولا يعرف نوم سرير
أحزان اليوم بحاله عامل منها الحصير
اللقمة لسَّه برضه مخلوطة بالشعير
يا وابور الساعة 12 صوت واضرب نفير) .

ولا ندري ما الذي دفع هذا الشاعر لأن يبيع مراتع صباه ويهجر وطنه ، وإلي أين ؟ ، إلي إسرائيل ! ، وفي تلك الفترة الصاخبة من حياة مصر ؟..
هل هي الخيانة أم هو ضعف الانتماء أم أنها لحظة جنون ؟! .
ما الدوافع الخفية لهذا الغموض الذي يكتنف هروبه إلي الجانب الآخر ؟ .
هل الهزيمة المفجعة في السابع والستين سبباً أم أنها أحد الأسباب ؟ .
يقول في أبيات أخرى عن العرب بعد هزيمة يونيو ، وعلي لسان أخيه :
(علي فين يا أولاد الناس رايحين
يا صوت حزين بتنادي لمين
للميت مليون مقاتل مساكين
يا نهار طالع في بلدنا مصبوغ بالطين
أنا شفت الشمس البردانة في كفوف ولدي

ولقيت الدمعة الحزنانة في عيون بلدي
وبكيت من الفجر خطواته بتغوص في الدم
وفي سينا سألنا وتفرقنا وازاي نتلم) .
وفي أبيات أخرى يقول ، ولنتأمل ما يقول ، هل يمكن أن نستنتج شيئاً :
(يا أم الشهيد صدقيني
الناس هنا دينهم ما هوش ديني !
أنا ليَّ وحدي نبي
نبي ذكي مش غبي
يقرا في التوراة وفي الإنجيل والقرآن
عشان البسمة ما تعشش في كل مكان
يا أم الشهيد صدقيني) .

(أدب ونقـد)
تطفئ 200 شمعة

إنه لأمر جميل أن تحتفل مجلة ، أية مجلة ، بصدور مائتي عدد منها .. فما بالك وأن هذه المجلة مجلة أدبية تعني بالشأن الأدبي فقط . ومجلة أدبية لا تصدر عن مؤسسة كبرى من مؤسسات الدولة ، بل عن حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي بإمكاناته وموارده المحدودة ، في الوقت الذي عجزت فيه الأحزاب المصرية الأخرى ، كبيرها أو صغيرها ، عن فعل نفس الشيء ، بل إن الحزب العربي الناصري الذي حاول إصدار مجلة مماثلة باسم " الملتقى " لم يستطع الاستمرار بعد عدّة أعداد متفرقة .

إذاً فالمجلة التي حافظت علي صدورها طوال الثماني عشر سنة الماضية بانتظام (تأسست عام 1984) ، وبالشكل المرضي للقارئ (الحجم والورق والسعر والمحتوى ..) ، وكأنما تستعير بهذا الشكل عنوان قصة إحسان عبد القدوس الشهيرة : أنا لا أكذب ولكني أتجمَّل ..

والحقيقة أن التجمع ظل يحتفي ويتميز بمطبوعاته المختلفة ، ربما لأنه ومع دعوة الرئيس السادات لإنشاء المنابر ، ومن ثم تحولها لأحزاب فيما بعد ، كان يضم بين صفوفه عدداً كبيراً من الكتَّاب والأدباء ذوي الميول والاتجاهات اليسارية بألوانها المختلفة . لكن الحقيقة تقول أيضاً أن استمرار " أدب ونقد " ونجاحها في البقاء حتى الآن ، رغم تعثر مجلات أدبية أخرى يفترض أنها تصدر عن مؤسسات ذات إمكانات كبيرة ، فمجلة " الثقافة الجديدة " توقف صدورها عن هيئة قصور الثقافة بعد أزمة الروايات الثلاث وإقالة المسئولين عنها ، ومجلة " إبداع " التي تصدرها هيئة الكتاب لم تعد منتظمة الصدور ، تغيب بالشهور فلا ينتظرها القارئ المهتم بالشأن الأدبي والذي ينصرف بالتأكيد لمناحي أخرى ، مجلة " القاهرة " التي اختفت منذ سنوات عادت مؤخراً في شكل صحيفة ثقافية شاملة عن وزارة الثقافة ، ويرأس تحريرها أحد أبناء التجمع و" أدب ونقد " : صلاح عيسى .. ، أقول أن هذا الاستمرار والنجاح كان وراءه عمل جماعي تقوده باقتدار رئيس التحرير :الكاتبة والناقدة فريدة النقاش ، التي لم تتخل عنها تحت أي إغراء طوال هذه السنوات ، تقول في مقدمة العدد التذكاري : (أن أكتب عن ما تمثله " أدب ونقد " بالنسبة لي وهي تحتفل بصدور مائتي عدد هو شئ صعب إذ أشعر بالحرج والفرح معاً ، الحرج لأنني كأنما أكتب عن أبنائي وأحفادي الذين أحبهم وأجدهم أروع بشر في العالم ، رغم معرفتي بكل عيوبهم أو هكذا أظن ، والفرح لأنهم كبروا وأصبحوا يسبغون علي َّنوعاً ما من حماية كانوا يحتاجونه مني في السابق . " أدب ونقد " قطعة مني لم تغادرني أو أغادرها أبداً ، أحبها وأغضب منها ، وهناك دائماً مساحات من التوتر بيننا) .

لقد ظل شعار المجلة المدوَّن علي صفحتها الأولى يقول أنها مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية ، وعلي صفحاتها احتفت بأقلام كل الأدباء من المصريين والعرب

وبخاصة أهل اليسار منهم ، الأسماء الأدبية الجديدة جنباً إلي جنب مع الأسماء الراسخة ، فصارت نافذة للنشر في وقت كانت تضيق فيه مساحات النشر أمام المبدعين الجدد ، فكاتب هذه السطور نشر أول قصة له علي صفحات المجلة وهي " المباطحة " بتقديم من الراحل محسن الخياط في باب لم يقدر له أن يستمر فيما بعد وهو : كتابات جديدة ، ربما لأن الخياط ركز جل جهده في تقديم الأدباء الشبان من خلال باب " نادي أدباء الأقاليم " الذي كان يقدمه كل خميس علي صفحات " الجمهورية " .

كما تميزت المجلة بتقديم ملفات عن كبار الأدباء العرب مثل : يوسف إدريس أو نجيب محفوظ أو لويس عوض أو فؤاد حجاج أو غيرهم . كما فتحت نافذتها علي الأدب العالمي من خلال الأعمال المترجمة من الغرب أو الشرق . وتصدت المجلة لكثير من القضايا الأدبية خاصة تلك المتعلقة بالمصادرة أو المنع أو المتعلقة بالحريات العامة . كما وقفت بالمرصاد للتيارات الدينية المتطرفة المعادية للإبداع ، والتي كانت تستخدم سلاح التكفير والردَّة كسلاح لإرهاب المبدعين . وكانت أقلام : سيد القمني ومحمد أحمد خلف الله ، وخليل عبد الكريم جنباً إلي جنب مع أقلام جابر عصفور ومحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس وغيرهم .

ولأنه في كل كمال نقصان ، فإن هذا الجهد النبيل لم يخل من بعض السلبيات ، فلقد عجزت المجلة عن جذب الأقلام المحافظة أو اليمينية المختلفة معها أيدلوجياً ، رغم تفوقها وحضورها علي الساحة للكتابة علي صفحاتها ، ولقد عمق المناخ الأدبي السائد في القرن الماضي للأسف هذا الاتجاه ، ولم تخف حدته إلاَّ مع انهيار المنظومة الاشتراكية . ولقد أدَّى هذا بالتبعية إلي اعتماد المجلة علي كتَّاب اليسار أو المنضمين تحت لواء الحزب إلي تمرير كثير من النصوص الضعيفة وتسربها لصفحات المجلة ، ولقد عملت المجلة علي تلميع أدباء لم تكتمل أدواتهم ولم تكن لهم من عدَّة أدبية سوى أنهم بالحزب ، كما جنَّد النقَّاد اليساريين أقلامهم أيضاً لهذا الغرض ، فغابت المصداقية مع غياب نبل المقصد ، لأن المبدع الموهوب والنص الجيد غالباً ما يجد طريقه للقارئ من أقصر الطرق ، ولكن هذا ما حدث أحياناً ، تماماً مثلما قدمت المجلة كثيراً من المواهب المتميزة التي شقَّت طريقها في الحقل الأدبي ، وحققت وجودها وإبداعها بالاستمرارية .

وعندما أخفقت أطروحات اليسار مع الإخفاق العالمي للمنظومة الاشتراكية ، فإن المجلة فتحت أبوابها لنقاش واسع للتصحيح ، للمصارحة دون التعتيم علي أخطاء الماضي ، والتجاوز نحو أطروحات الحاضر والمستقبل ، من أجل مواصلة الصدور رغم كل الظروف والتحديات ، ولعلها نجحت حتى الآن ، وإلاَّ ما كان هذا الاحتفال بصدور العدد رقم (200) .

" أدب ونقد " .. كل مائتي عدد وأنت بخير .

الهم السياسي في رواية الحب في المنفى* لـ " بهاء طاهر "

مما لا شك فيه أن المجتمع يرتبط بالأدب والفن بروابط وثيقة الصلة ، وكلما اقترب الأدب بأدواته الفنية من قضايا الوطن وهمومه ، كلما ازداد صدقا وحميمية لدى المتلقي .
الروائي بهاء طاهر قدَّم للحياة الأدبية مجموعة متميزة من الأعمال الأدبية : الخطوبة ـ بالأمس حلمت بك ـ أنا الملك جئت ـ شرق النخيل ـ قالت ضحى ـ خالتي صفية والدير .. وغيرها .
في روايته الأخيرة " الحب في المنفى " لم يقترب بصورة جلية أو بدرجة عالية من الحس السياسي المتوهج من قضايانا وهمومنا الوطنية فحسب ، بل تجاوز ذلك تجاه القضية الإنسانية بوجه عام .
عندما يقلب القارئ الصفحات الأولى للرواية ، يصدم بمأساة " بدرو إيبانيز " ـ سائق التاكسي بسنتياجو " شيلي " ـ الذي أوقعته الصدفة البحتة في قبضة إدارة الأمن الوطني التي أهدرتْ أدميته ، وعذبته تعذيباً وحشياً لا يصدقه عقل بشر .
وعندما يصل القارئ للصفحات الأخيرة من الرواية ، يكون قد غرق تماماً في لجة الدماء العربية المراقة علي أرض لبنان في عين الحلوة وصبرا وشاتيلا ..
يقول الأديب " بهيج إسماعيل " في صحيفة الأهرام المسائي معبراً عن رأيه في الرواية :
" لم أقرأ الرواية بعيني إلاَّ في الصفحات الأولى ، ثم قرأتها بعد ذلك كلها بقلبي" .
وما بين الصفحات الأولى والأخيرة تأخذنا الرؤية السياسية الشاملة لبهاء طاهر مع أحداث ووقائع الرواية . تقول الناقدة " اعتدال عثمان " بمجلة " نداء " :
" اتسعت الرؤية في الحب في المنفى لتشمل الذات والوطن والعالم بشماله وجنوبه ، وبلغت خبرة الكتابة أوج نضجها " .
والحب في المنفى هي قصة حب الراوي لـ " بريجيت " ، كيف أحبها ؟ ، كيف التقى بها في إحدى مدن الغرب أو المنفى كما يطلق عليها ، ونعرف أنه صحفي ناصري ، ترك مصر مضطراً تحت وطأة التحول السياسي ومطاردة الأحلام المحبطة . مع تنامي قصة الحب هذه نتعرف علي قصة زواجه الفاشل في مصر من زميلته الصحفية " منار " التي أنجب منها " خالد " و " هنـــادي " ، لقد خفق قلبه في خريف العمر مرَّة أخرى لـ " بريجيت " التي تشبهه إلي حد كبير : هي مغتربة مثله في ذات المدينة ، مطاردة أيضاً بقصة زواج فاشلة من " ألبرت " الأفريقي بعد أن فقدت جنينها منه قبل اكتماله ، ذلك بسبب عنصرية مجموعة من شباب بلدتها السكارى ، الذين لم يقبلوا بفكرة زواجها من هذا الأفريقي الملون ، حيث يتدهور " ألبرت " ويتحول للنقيض ويعود لوطنه مهزوماً .
يلتقي الراوي بصديقه القديم " إبراهيم " ـ الماركسي ـ ويستعيدان معاً ما كان بينهما ، يتذكران ويتكاشفان ـ ينعيان عصراً مضى بكل رموزه ومفرداته ، مات "

عبد الناصر وجاء السادات ما لبث أن تخلص من كل الرموز الناصرية ، ويتفكك الاتحاد السوفيتي ، وتصير الاشتراكية اتهاماً ورجساً من عمل الشيطان ، يحاول إبراهيم نشر ما لديه من وثائق ومعلومات عن عنصرية إسرائيل ودمويتها مع مواطني لبنان وفلسطين ولا يستطيع ، تتكشف لديه ديمقراطية الغرب المزيفة ، الانتقائية عندما يتعلق الأمر بإسرائيل ، يعرف أن حاله لا تختلف كثيراً عن حال " برنار " الصحفي اليساري بجريدة " التقدم " الذي هجره ابنه وقاطعه " الابن يعمل في تجارة السلاح للأفريقيين " ، وأن زبانية التعذيب في أمريكا اللاتينية الذين عذبوا " بيدرو " هم بنفس الوجوه في بلدان العالم الأخرى .
يتأزم قلب الراوي الذي لم يحتمل ما تحكيه الممرضة النرويجية عن مذابح إسرائيل للفلسطينيين في عين الحلوة ، لكن " بريجيت " تمنحه تميمة الحب التي تنقذه ، تعيده للحياة مرّة أخرى ، يتماثل للشفاء ، ما زال في الحياة حقيقة واحدة لكليهما وهي الحب .
يتبقى مشروع الصحيفة الذي عرضه عليه من قبل " يوسف " الشاب المصري الجامعي الهارب إلي هذه المدينة بعد اصطدامه وتظاهره ضد السادات ومن ثم حبسه ، صحيفة بمساعدة أمير عربي تقدمي ، يلتقي الراوي به ، لكنه يكتشف بالبحث والتقصي علاقته المالية وارتباطاته مع " دافيديان " ، المليونير المصري اليهودي المهاجر لإسرائيل ، المؤيد لسياساتها علي طول الخط ، ، حيث يرتبطان معاً في تجارة الخيول العربية ، وعندما يكشف عن ذلك لـ " يوسف " الذي كان توَّاقاً للإعتاق من وضعه الحالي ، لعالم الصحافة الذي يحبه ويعشقه ويعلق عليه آماله في المستقبل ، يُصدم " يوسف " ويصاب بالإحباط ولا يجد أمامه مفراً إلاَّ الارتماء في أحضان الأمير .
في خط آخر مواز نتعرف علي سقوط " خالد " ـ ابن الراوي ـ في أزمة روحية في مصر ، حيث يلتقطه الفكر المتطرف الواحد المطلق ، البعيد كل البعد عن روح الإسلام وسماحته . ومن ثم يأتي تحجب " منار " مطلقته متوازياً مع ذات الخط ، لم يعد بابها الأسبوعي الذي تكرسه للدفاع عن تقدم المرأة وتحررها ، بل اتجه اتجاهاً معاكساً .
الراوي و " بريجبيت " يبذلان كل ما في وسعهما لإنجاح المظاهرة المزمع تنظيمها لإدانة بطلي الذبحة : " بيجن " و " شارون " ، ويأتي تهور واندفاع " يوسف " أثناء المظاهرة ، فلا ندري هل كان بغرض إفساد المظاهرة إرضاءً للأمير " حامد " علي وجه اليقين ، أم أنه بدافع وطني ما زال يتأجج في قلبه ؟ .
تحاصر الأحداث الراوي و " بريجيت " وتدفعهما دفعاً لتجاوز الخيوط الحمراء التي يرسمها القادرون علي الفعل ، لقد عرف أشياءً لا ينبغي أن يعرفها ، ولم يقل كل ما عنده لها عندما حاول الأمير استدراجها ولم ينجح ، تأتي النهاية منطقية ، صحيفته تنهي انتدابه ، ومكتب السياحة يستغني عن خدمات " بريجيت " ، لم يعد بقاؤهما مرغوباً فيه ، إنها لعبة الكبار وقد وجدا نفسيهما في دائرتها علي حين غـــرَّة .

في طريقهما للمطار ، وهي عائدة لوطنها النمسا وهو يوصلها بسيارته ، تمسك بمقود السيارة محاولة الانتحار معه ، لكنه ينقذ الموقف في آخر لحظة .
عندما يعود للبحث عن قصر الأمير " حامد " وصل إليه بعد عناء ، تواجهه الأبواب الحديدية العالية الموصدة ، وأصوات الحرَّاس الخشنة ، ونباح الكلاب الشرسة التي تطارده وتطرده ، يعود وهو يجر قدميه إلي حديقته المفضلة ، يسقط إعياءً علي أحد المقاعد ، يطالعه وجه يعرفه ، هل هو وجه " بيدرو " ؟ ، يعرض عليه مخدرات للبيع ، ثم يفر فجأة من أمامه وهو يستبقيه منادياً : " انتظر .. انتظر . لمَّا يرفع عينيه ، لا يرى أمامه سوى الشرطي الذي يخاطبه : " يا سيِّد .. يا سيِّد هل أنت بخير ؟ " . لكنه لا يرد ويستسلم رويداً رويداً للسكينة الأبدية .
الراوي يقترب من الواقع ، أو هو ينقل الواقع كما هو أحياناً : قضية تعذيب " بيدرو " حقيقية ، كذلك شهادة الممرضة النرويجية ، والمقال المنسوب لـ " برنار " وشهادة الصحفي الأمريكي " رالف " ، وبالطبع دماء الشهداء .
الرواية تطرح عديد من الأسئلة والإشكاليات : هل ينبغي علي المبدع أن يقترب من الواقع حتى يلتقي بالسياسي مباشرة ، أم أن العكس هو الصحيح ؟ ، بمعنى آخر هل ينبغي أن تكون هناك مساحة بين الروائي والسياسي أو بين الخيال والواقع ؟ ، هل تخضع قرارات الساسة علي أرض الواقع لرؤى وأحلام الروائي في دنيا العدل والمساواة والحرية .
الهم السياسي في " الحب في المنفى " هو ذاته الهم الذي عزف علي رأيه من قبل آخرون :
الطهطاوي وطه حسين وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس والطيب صالح وعبد الحكيم قاسم ..
ذلك من خلال أعمال في مواجهة الآخر : الغرب المتفوق حضارياً .
" الحب في المنفى " هي رواية الأحلام المستحيلة والواقع المرير والرؤية الإنسانية الشاملة ، وهي أيضاً العلاقة المعقدة من خلال اشتباك الأدب مع السياسة .

* الحب في المنفى - رواية بهاء طاهر - روايات الهلال - ط1 (1995) ، ط2 (1996) .

أوريانا فالاتشي

هاتان المقالتان القصيرتان " قصة حب دافئة " و " حتى أنت يا فالاتشي " ، بينهما مسافة زمنية تقرب من تسع سنوات ، الأولى كتبت عام 1993 والثانية عام 2002 ، وهما متناقضتان في الرأي رغم أنهما مرتبطتان برباط واحد ، هو اسم الكاتبة الإيطالية الشهيرة : " أوريانا فالاتشي " .

قصة حب دافئة *

ربما هي مصادفة أن أقرأ " قصة حب دافئة " لـ " محمد المندى " ، ذلك بعد وقت قصير من قراءتي لرواية " إنسان " لأوريانا فالاتشي ، لذا فقد جاءت الموازنة بين العملين دون قصد . رواية " إنسان " هي قصة بطل المقاومة باناجوليس في مواجهة السلطة ، و" قصة حب دافئة " هي قصة المكافح الوطني الدكتور عبد البديع في مواجهة الاحتلال الأجنبي والبوليس السياسي ، اجتمعت الروايتان علي الصدق رغم اختلافهما في الزمان والمكان والأحداث وطريقة التناول .
محمد المندى يكتب أحداثاً وقعت في الثلاثينيات ، يتناولها قلمه بطريقة عفوية وبسيطة ، لا تلتفت إلي أي من مراحل التطور الروائي أو مستحدثاته ، الشيء الذي نجده في " إنسان " فالاتشي ، كأن المندى يرفض التخلي عن الماضي الجميل بكل أشكاله ومضامينه ، الأحداث تتري وتتضح من خلال الحوار بصفة رئيسية ، نتعرف علي الدكتور عبد البديع وشلة النادي : نهى الدرمللي وسامية ومنال وجلال وسميرة وضرغام ، تتبدى لنا علاقاتهم الإنسانية المتشابكة ، لكننا نتابع الأحداث فلا نشعر بالملل من خلال الحكي المباشر الذي يتصدى له دون ضرورة ذلك التقسيم الفصلي الذي بدا متعسفاً وجائراً أحياناً .
كانت فالاتشي تحكي بدقة وعمق ووعي عن باناجوليس ، قصة حبه للراوية ، كفاحه ضد السلطة ، معاناته في السجن ، لقد أن أقرأ شيئاً مثل هذا عن الدكتور عبد البديع ، لكن المندى اكتفى ببساطة السرد والرؤية من منظور بعيد .

**** قصة حب دافئة ـ رواية محمد المندى ـ علي نفقة المؤلف ـ 1993م .***

حتى أنت يا " فالاتشي "

منذ عدة سنوات لفت انتباهي اسم الكاتبة الإيطالية أوريانا فالاتشي ، عندما قرأت لها روايتها الجميلة " إنسان " * في روايات الهلال ، والتي تحكي قصة بطل المقاومة " باناجوليس" في مواجهة السلطة ، ولقد هزتني فيها مشاهد الحب والنضال والسجن المتشابكة ، وقلت في نفسي هذه كاتبة قريبة من عالمنا ، خاصة وأنها هي التي أجرت مقابلاتها الصحفية الناجحة مع كثير من الأقطاب المناوئين لأمريكا والغرب بصفة عامة كـ " الأمام الخميني " و " القذافي " وغيرهما ..
فجأة ، وبعد مرور السنوات ، أطلت علينا " فالاتشي " من أمريكا بكتاب جديد ، فعرفنا أنها تعيش هناك في عزلة الشيخوخة ، وكتابها الجديد " الغضب والاعتزاز " يتناولنا نحن العرب والمسلمين بالتحديد بعد أحداث 11 سبتمبر ، وراحت تحذر الغرب منا نحن " أبناء الله " كما أطلقت علينا ، وأننا في سبيلنا لهجمة صليبية مرتدة ضدهم ! ، بالإضافة لقائمة طويلة من التهم منها أننا نتناسل كالفئران ، ونمتاز عن غيرنا بالتعصب والقذارة والعهر ، وأننا نفايات توسخ شوارعهم وميادينهم .. هذه وغيرها من التهم ترجع لسبب واحد هو أننا ننتمي لديانة مرعبة اسمها الإسلام التي تعلمنا فقط الحقد عليهم هم البيض الأطهار أصحاب الحضارة العظيمة ..
وطافت برأسي أسئلة كثيرة : لماذا تفعل هذا فالاتشي ؟ ، هل وهي الكاتبة القريبة من عالمنا لم تعرف حقاً الإسلام ، ولم تعرف حقاً قضيتنا ومصيبتنا مع الصهاينة في فلسطين ؟ ، ولم تعرف حتى موقفنا مما حدث في نيويورك ؟ ..
ثم ولماذا عرف " ماركيز " ، وهو الأبعد جغرافيا الحقائق البديهية عنا نحن " أبناء الله " ! ، تماماً كما عرفها كتَّاب وأدباء آخرون كـ " خوان غويتيسولو " و" وول سونيكا " و" ساراماجو " وغيرهم ..
والحقيقة أنني لم أجد لديَّ إجابات قاطعة ، لكنني خمنت أن " فالاتشي " لابد أن تكون من نفس فصيلة رئيس وزرائها الإيطالي صاحب ذلَّة اللسان الشهيرة ، لكنها تمتاز عنه أنها كانت أكثر جرأة وهي تنفث سمومها وأحقادها علي صفحات كتابها ، أو أن الاحتمال الآخر أنها ليست " فالاتشي " صاحبة رواية " إنسان " التي أعجبتني يوماً ما ، لكنها العجوز " فالاتشي " التي بلغت بشيخوختها مرحلة الشطط والتخريف .. ولهذا فإنها وكتابها التافه لا تستحق منا سوى الشفقة .

---

* إنسان ـ رواية أوريانا فالاتشي ـ روايات الهلال ـ العدد 500 .

الثـــــورة

عندما صحبني أبي طفلاً في أول يوم مدرسي عام 1960، رأيت الأطفال في طابور الصباح وهم يرددون بصوت عالٍ نشيد : (ناصر كلنا بنحبك) . بعدها كنت تلميذاً نجيباً وأنا أردد معهم منجزات الثورة في التحرير والتعليم والصحة والسد العالي وغيرها . ورغم أن أسرتي قبل الثورة كانت وفدية قلباً وقالباً إلاَّ أنني تعلمت من أبي ـ الموظف البسيط ـ حب عبد الناصر وأنا أراه حريصاً علي سماع خطبه ومهللاً لمنحه وعلاواته وقراراته من أجل العمَّال والفلاَّحين . ومن قروش مصروفي القليلة كنت أستطيع شراء كتب ومجلاَّت وصحف وأن أقرأ الأدب وأعشقه . فيما بعد كنت عضواً عن الشباب بالاتحاد الاشتراكي وشاركت بوطنية متأججة في العمل العام بقريتي وصوَّر لي خيالي الجامح آنذاك قدرتي علي تكوين تنظيم شبابي عربي تكون مهمته الأولى إجبار الحكومات العربية علي الوحدة التي يحلم بها عبد الناصر . وكنت عاشقاً عظيماً لأغاني عبد الحليم وعبد الوهاب وأم كلثوم الوطنية ، وما زالت هذه الأغاني تقتحم داخلي حتى الآن وتهيج مشاعري كلما سمعتها . لكنني انكسرت مع هزيمة يونيو 67 وأدركت أن إلغاء الأحزاب ليس منجزاً ثورياً وأسفت لمآل محمد نجيب والمغالاة الإعلامية في تصوير فساد الإقطاع والرأسمالية . وأدركت أن الثورة غالت كثيراً في الاتجاه للخارج علي حساب الداخل رغم صور عبد الناصر المحمولة علي صدور الثوار في أفريقيا وأمريكا اللاتينية . وعندما كتبت قصصي القصيرة كانت في حقيقة الأمر في معظمها قصة طويلة للثورة ، من بداية مجموعتي الأولى " عيون الدهشة والحيرة " وحتى مجموعتي الأخيرة " حلقة ذكر " . لكن اللحظة الماثلة في ذاكرتي الآن ، والتي صورتها في بعض قصصي ، هي لحظة رحيل عبد الناصر ، عندما انطلقنا نحن الشباب نجري في شوارع فاقوس بذهول وصورة مصر العظيمة تتأرجح في الظلام أمام أعيننا الموشاة بالحزن والغضب .
والآن أيضاً مازلت اعتقد أن أعداء ثورة يوليو في الماضي هم أنفسهم أعداء الوطن اليوم ، وأن وجوه : إيدن وبن جوريون ومائير وجونسون لا تختلف كثيراً عن وجوه : النتن ياهو وباراك وشارون .

الرواية العربية وقضايا الوطن

الأزمة في الوطن العربي يساء مفهومها أحياناً حتى يصل لتلك النزاعات القبلية الصغيرة داخل القطر الواحد ، ويتركز مفهومها أحياناً أخرى ليشير فقط لقضايا الوطن الكبرى .
عندما يقرأ المرء عملاً إبداعياً روائياً ، يتناول في المقام الأول مفهوم الأزمة ، فأنه سيجد أن هذه وتلك تتداخل بدرجات متفاوتة ، وإذا كان اعمل يتسم بالجودة التي تثير الدهشة، خاصة إذا كان المبدع في حالتنا هذه من الشباب الذين عاشوا التجربة ، واكتووا بنارها ، وكتبوا عنها ، فإنه يلزم وجوب الإشارة والالتفات لهـــا .
لعل أفضل روايات الأزمة ـ إذا جاز التعبير ـ تلك التي أبدعها هؤلاء الشباب ، وأولى هذه الروايات :

- **" حجر الضحك " للكاتبة اللبنانية " هدى بركات " :**

تتناول الأزمة اللبنانية من خلال بطل الرواية " خليل " ، هو بطل ولا بطل في ذات الوقت ، هو لبنان الذي يفاجأ فلا يعرف ماذا يحدث ولماذا ؟ ، هو لبنان الباقي رغم مأساة الحرب ، وهذا النص الجميل يقول عنه إدوار الخراط : " رواية ممتازة ورائعة .. رواية ذهن مثقف وعلي وعي تام ومعرفة بالتقنيات الحداثية " . وقال عنها " محمد برادة " إنها من أجمل النصوص التي قرأها عن حرب لبنان .

- **" أحلام الغرس المقدس " للفلسطيني " باسل الخطيب " :**

هي رواية ممتدة مع امتداد الصراع ، و" يوسف العربي " وأسرته وقريته وناسه في مواجهة المحتل ، الرواية وثيقة إدانة وقضية شعب لا يموت ، بأسلوب المنمنمات التي تصور الشعب بكفاحه وعاداته وتقاليده وغرسه المقدس .

- **" جمهورية الغابة " للسوداني " خالد باكر أبو عاقلة " :**

توقفت عندها لأنها عمل غير مسبوق يعالج بوعي واقتدار مأساة السودان في جنوبه ، القضية التي لا تحظى بقدر كاف من المعرفة +لدى المواطن العربي ، الجنوب بجهله وفقره وقبائله الوثنية وأساطيره القديمة وأصابع الأعداء التي تعبث هناك ، بالخرز الملون تستبدل الأبقار والنساء والشهوات ، النخاسة التي كانت وأبشع صورها، البعض الذي يردد مؤمناً بيت الشعر الشهير : " لا تشتر العبد إلاَّ والعصا معه .. إن العبيد لأنجاس مناكيد " . واللافت للنظر عند قراءة النص هو التناوب السردي بين الحكي والنثر اللغوي كضفائر الشعر لامرأة

أفريقية تغني تراتيلها بالرقص العنيف والطبول الأفريقية بين الغابة والأسطورة والأجساد السمراء العارية اللامعة وبشاعة الحرب بين أبناء الوطن الواحد .

- هذه الأعمال كتبت إبان أزماتها ، فهل ينتفي الاعتقاد القائل بأنه ينبغي أن يمر وقت كاف علي الأزمة حتى يتجرد المبدع ويتخلص من الصوت العالي المتحيز ، وحتى لا يقع في براثن الغوغائية الدعائية الفجَّة .

السؤال الذي يطرح نفسه : أين الأعمال التي تعالج أزمة الخليج بحربيها الأولى والثانية ؟ ، خاصة وأنها قد نالت من الجميع وأحدثت زلزالاً لم يبرأ منه الوطن بعد .

قال همنجواي في مرة : " إنك لا تستطيع أن تكتب كل شيء أثناء الحرب ولا حتى بعد وقوعها بوقت قصير " ، وربما تكون هذه المقولة صحيحة بسبب الخوف من افتقاد الصدق في التجربة الفنية نتيجة غياب لحظة التأمل الواعية ، هذه الحقيقة علي بساطتها ليست مطلقة ، ليست قاعدة ، فالأعمال الإبداعية الجيدة التي تناولت حرب أكتوبر 1973مثلاً لم تخضع في جودتها أو فنيتها العالية لقرب المسافة الزمنية أو بعدها عن وقت الحرب . ولعل أخطر ما يواجه المبدع بالنسبة لأزمة الخليج غياب الهدف ، وافتقاد المثل ، وكل القضايا التي طرحت كمبرر للأحداث تم دحضها وتشتت أسبابها في ذهن المثقف العربي الذي هزته الفجيعة .

بقي أن أقول أن رواية الأزمة التي أبدعها الشباب لها حضور قوي ومتميز ، ما زالت تحتاج قراءات أخرى متأنية ، وتقييماً نقدياً أشمل ، من خلال أقلام متخصصة .

خيري شلبي
(سارق الفرح يفرح أخيراً)

أخيراً ، يفرح سارق الفرح ، خيري شلبي ، الكاتب والروائي الكبير ، بحصوله علي جائزة " نجيب محفوظ " للرواية العربية ،عن روايته (وكالة عطية) ، والتي يقدمها قسم النشر بالجامعة الأمريكية سنوياً ، تلك الجائزة التي حدث حولها كثير من اللغط لكونها من جامعة أمريكية ، والتي نالها من قبل أدباء مثل يوسف إدريس وإدوار الخراط ولطيفة الزيات وإبراهيم عبد المجيد ، ومريد البرغوثي وهدي بركات وبنسالم حميش وغيرهم .

*** * ***

- **خيرى شلبى .**
- **كاتب متفرغ .**
- **من مواليد 31 يناير 1938 بقرية شباس عمير بكفر الشيخ .**
- **له سبعين كتابا بينها الروايات والمجموعات القصصية والحكايات التاريخية والدراسات النقدية منها (السنيورة ، الأوباش ، الشطار ، الوتد ، العراوي ، فرعان من الصبار ، موال البيات والنوم ، لحس العتب ، موت عباءة ، بغلة العرش ، بطن البقرة ، رحلات الطرشجي الحلوجي ، صالح هيصة ، سارق الفرح ، الدساس ، أسباب للكي بالنار .. وغيرها) .**
- **عمل أستاذا زائرا بمعهد الفنون المسرحية لتدريس تاريخ المسرح المصرى المعاصر.**
- **يرأس حاليا تحرير مجلة الشعر (وزارة الإعلام) وأيضا سلسلة الدراسات الشعبية (الهيئة العامة لقصور الثقافة) ،**
- **حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الآداب عام 1980- 1981 وحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في نفس العام .**

*** * ***

(كلمة خيري شلبي بمناسبة فوزه بالجائزة)

(أرجو أن تغفروا لي إن بدوت أمام حضراتكم مرتبكا ، عاجزا عن التعبير عن مدى ما أكنه من حب وتقدير لجائزة تحمل اسم أستاذنا العظيم نجيب محفوظ مؤسس فن الرواية العربية ومؤسسنا، وعن عميق شكري وامتناني لهذه اللجنة الموقرة لأنها رأت أن روايتى " وكالة عطية " ترقى إلى مستوى هذه الجائزة

الكريمة ، وعن الرهبة التي تتمشى الآن في أوصالى إذ أقف أمام حضراتكم وفيكم أساتذتي وزملائي وأصدقائي وأبنائي ... وإني لمقدركم جميعا أجل التقدير ، فأنتم مصدر الإشعاع ومنبع الإلهام، ومجتمع الضمير، وأهل الفكر والمكابدة، ولئن كنت قد كتبت شيئا يعتد به فإن الفضل يرجع إلى شعوري بأنكم قد تقرءونه، فإذا كان الوجل منكم يعترينى وأنتم وراء قلمي حين أكتب، فماذا يكون حالي وأنا أواجهكم؟! على أن شيئا آخر لم أكن أتوقعه ، يسهم الآن فى إرباكي. ذلك هو فوزي بجائزة نجيب محفوظ . فأنا لست مدربا على نيل الجوائز ، ولم أفكر مطلقا فى أن أتقدم لأية جائزة طوال حياتي ، لاقتناعي بأن الجائزة تفقد معناها وقيمتها إذا نالها من يطلبها . وكنت ولا أزال على قناعة بأنه لمن الصفاقة و" تخانة " الوجه أن يتقدم مبدع لنيل جائزة أيا كانت قيمتها المادية والمعنوية . وحقيقة الأمر أنني لم أكن في يوم من الأيام حسن الظن بنفسي ، وهاأنذا بعد أن تقدمت بى السنون واتسعت تجاربي.. لم أتأكد بعد مما إذا كان ما أكتبه ينتمي للفن حقا أم أنه محض هراء؟ ، واعترف اليوم أمامكم بأنني قد سخطت على الجوائز العربية إصرار منظميها على تحويلها إلى مسابقات يتقدم لها كل من يحسن الظن بنفسه ، من النشطاء البارعين في نسج العلاقات العنكبوتية ، والقادرين على الضغط والإلحاح والمقايضة ، والباحثين عن شرعية فنية تصلب القامات الرخوة ولو إلى حين . كنت ولا أزال أسخط على الموهوبين الأصلاء حين أعلم أنهم تقدموا بطلبات للحصول على هذه الجائزة أو تلك ، ثم ما ألبث حتى ألتمس لهم أعذاراً ، وأفرح فرحهم إن حصلوا عليها عن جدارة واستحقاق إلا أنني أقاوم الضعف تحت إغراء من يحفزونني على التقدم إلى إحدى الجوائز المرموقة مهما أشعروني بأني قادر على المنافسة . ذلك أنني على قناعة راسخة بأنه دائما أبدا .. يفوز في السباق من ليسوا بفرسان ...
أما وقد آتتني الجائزة دون أذهب إليها ، كوسام يحتل فيه اسم نجيب محفوظ مكانة الحجر الكريم ، مضمخة بعطر عرقه وكد ذهنه الإنساني النبيل ، مؤيدة بتقدير من لجنة ممن لا يتخيرون عنكم في النبل والاستنارة . فإن هذا ليرفعني إلى أعلا مراتب التكريم ، ويقدم ابنتي العزيزة إلى حفل زفافها بعد انتظار دام ثلاثة عشر عاما من انتظار الحبيب وتدلهه، وهى أبدا لا تزداد إلا حباً فيه وانتظارا واثقا من مقدمه السعيد) .

* * *

سارق الفرح يهدينا كل الأفراح

(قراءة في مجموعة سارق الفرح)

بقلم

محمد عبد الله الهادي

(جريدة الجمهورية في 30 - 1 - 1992 م)

ربما تفرد " خيري شلبي " عن الآخرين بأنه الأديب الذي عاش حياة ثرية ومتنوعة في آن ، عايش فيها أشتاتاً من البشر خاصة الهامشيين منهم ، ملح

الأرض كما يقولون ، هؤلاء الذين نجدهم في الحواري والأزقة الشعبية وعلي تخوم المدن وفي القرى . علي ذلك فإن مجمل كتاباته تحمل زخماً من نوع خاص وعبقاً من أصل فريد .
في " سارق الفرح " ـ مجموعته القصصية ـ نقرأ " سامبو " ذلك العبد الخادم العنيد ، ورغم أن القصة لها أصل شعبي متداول ، فقد كتبها شلبي بشكل ومضمون خاص . وفي قصة " طبق الأرض " تتبدى العلاقة بين مالك الأرض وعامل الأجرة في الزمن الذي فات ، وفي قصة " العروس " نتجول مع بائع السمك ، نتمنى من حبات قلوبنا أن يوفق في بيع أجمل سمكة لديه التي يسميها العروس . في قصة " طق الليل " تمتزج جسارة ابن الليل ، القروي الشجاع ، مع طيبته المفرطة لحد السذاجة . وفي قصة " شق الثعبان " نلتقي بحقبة السبعينيات بكل إحباطاتها الاجتماعية والاقتصادية . في قصة " ديك الجن " نمضي مع الشاب الصعيدي النازح للمدينة لأول مرة ، الذي يعيش علي تخومها والتوَّاق للغوص في مباهجها ومفاتنها المثيرة . في قصة " أمسيات الفحم الرديء " نلتقي بعالم المقهى ورواده ومعلميه وطقوسه ، وصبي المقهى الصغير في محاولاته المستميتة لإثبات وجوده ككائن في هذا العالم بساقين مرتعشتين . وتذكرت الراحل يوسف إدريس وقصته الشهيرة " نظرة " عندما قرأت قصة " عدل الطاسة " . أما حال الدكتور البائس في المدينة التي لا ترحم نعرفه من خلال قصة " موقف الغرق " ، هو ليس طبيباً لكنه دكتور علي شاكلة طه حسين ! .
ونمضي مع باقي القصص: الحول ومنزلة الشوق وقيام الواجب والعرجاوي عطا والصاعقة .. الأحداث تجري إما في القرية أو المدينة أو تجمع بينهما ، أما قصة " سارق الفرح " الموسوم بها اسم المجموعة فإننا نتوقف كثيراً أمام تلك المفارقة العجيبة في الزمن الرديء ، الفرح المقام لـ " عوض " علي ابنة العم بيومي ، وكل هذه الزينات ، يساوي تماماً ثمن فردتي حذاء مستورد خاص بأخيه " مطر " طبَّال الراقصة .
الحقيقة أن قراءة هذه المجموعة بعيداً عن تقنيات النقد وأساليبه تمنحنا متعةً عظيمةً . مرحباً بسارق الفرح الذي منحنا في مجموعته كل هذه الأفراح .

أليفة رفعت
الجنس والموت في حياة المرأة العربية*

تناولت بعض الصفحات الأدبية مؤخراً بصورة سلبية أدب " أليفة رفعت "[1] متهمةً إياه بالركاكة والبعد عن الموضوعية ، خاصة عندما يتناول حياة المرأة الشرقية بصورة معينة تروق للغرب وتسئ لحقيقة وضع المرأة العربية . هذا الاتهام في مجمله غير صحيح ، وبين يديّ آخر مجموعة قصصية وصلتني من أليفة رفعت بعنوان " ليل الشتاء الطويل "[2] .

لقد بدأت معرفتي بأدبها من خلال قصة نشرت لها منذ سنوات بعنوان " في موسم الياسمين" .. قصة جميلة ورائعة ، ورحت أبحث عن عنوان " أليفة " حتى عرفته من خلال عمود " صواريخ " بصحيفة الجمهورية للأديب الراحل الذي تناسته الصفحات الأدبية أيضاً " إبراهيم الوردانى " ، وعندما تتبعت بعض قصصها بعد ذلك أدركت أن قضيتها الأولى هي المرأة ، ورغم عدم اقتناعي بمفهوم الأدب النسائي كتصنيف إلاَّ أن ظلال هذا الأدب تبين بوضوح في أدب أليفة رفعت ، قصص أليفة هي قصص المرأة بأسلوب تقليدي بسيط ، والحوار فيها بالعامية ، والجنس والموت هما أهم محوران فيها . في قصة " ليل الشتاء الطويل " تكتب عن المرأة التي تكتشف خيانة زوجها لها مع الخادمات ، تصمت مقتنعة بمقولة " كل الرجال كده " ، في قصة " حدث في دار غباشى " يسافر الزوج تاركاً زوجته وابنته التي تسقط في براثن الجار الأعزب ، وكيف تعالج الأم الأمر خوفاً من الفضيحة . في قصة أنا وأختي " ترصد سلوكيات الأخت التي فاتها قطار الزواج . في قصة " بدرية وزوجها " نتعرف علي الزوجة التي تكتشف فجأة شذوذ زوجها . وفي قصة " منظر بعيد لمئذنة " تتحدث عن العلاقة الجنسية المشوهة بين زوج وزوجته ، ثم كيف تستقبل موته بالبرود واللامبالاة . وفي قصة " شقة بشارع النقشبندي " نرصد حياة عانس .. وهكذا في باقي القصص نجد أليفة تتخذ من واقع بنات جنسها منهجاً وأسلوباً للكتابة دون افتعال أو تزييف ، ولا يعيب أدبها أن الغرب أحياناً ينظر لأدبها بعين انتقائية تنتشي برؤية السلبي والضار والمشوّه في حياتنا بغية إرضاء نزعة استعلاء عنصرية ، وإلاَّ ما وظيفة الأدب إذا لم يتناول كل أوجه حياتنا ؟ ، وعلي ذلك فإن أهم ما يميز أدب أليفة رفعت هو خصوصيته الشديدة وهو يتناول المرأة الشرقية ، حتى أن كاتباً كبيراً مثل " أحمد بهاء الدين " قال عنه في مرَّة :

" خير ما كُتب عن المرأة المصرية حتى الآن خصوصاً الفلاَّحة والعاملة البسيطة ".

أمَّا المستشرق والمترجم " دنيس جونسون دافيز " قال عنها أنها : " كشفت النقاب عن وجه جديد للمرأة العربية " .

وقال د . " ناجي نجيب " أستاذ الأدب العربي بألمانيا ومترجم الألمانية : " ما يميز قصصها هو البعد عن الافتعال والركاكة الرومانسية الصاخبة والإحكام في الروي " .
وقالت الناقدة الإنجليزية " جان موريس " :" ناعمة وخطيرة مع المخلوقات ، وأدبها يدور حول الجنس والموت " .

(1) أليفة رفعت ـ كاتبة مصرية راحلة ـ صدر لها عدة مجموعات قصصية : حواء تعود بآدم ـ من يكون الرجل ـ صلاة الحب . وصدرت لها رواية " جوهرة فرعون عن دار الهلال ، ولها أعمال أخرى لم تطبع . ترجمت أعمالها وصدرت في مجموعات بالإنجليزية عن دار كوارتيت ودار هاينمان وترجمت أعمالها أيضاً للألمانية .
(2) ليل الشتاء الطويل ـ قصص أليفة رفعت ـ مطبعة العاصمة 1985م .

قراءة في رواية " حكاية شوق "*
للأديب أحمد الشيخ

قليلون هؤلاء الذين عرفوا أسرار القرية وكتبوا عنها ، القرية : البيوت والأرض والأجران وأبراج الحمام والسواقي والدروب والنخيل والصفصاف .. وأولاً وأخيراً هؤلاء الناس بحياتهم الثرية .

" أحمد الشيخ " واحد من هؤلاء القلائل الذين خبروا القرية ، ليس لأنه أحد أبنائها فقط ، لكن لأنه يكتب عنها كتابة العاشق لها ، ولهذا كان إبداعه صادقاً . من قبل كتب " النبش في الدماغ " و " كشف المستور " و " الحنان الصيفي " و " الناس في كفر عسكر " .. وغيرها من الأعمال . وهاهي " حكاية شوق " .. شوق ابنة عائلة شلبي من كفر عسكر ، شوق وأخواتها البنات : نعمات وعطيات و جواهر والأم والأب ، وأولاد شلبي وصراعهم الأبدي مع أولاد عوف ، الجد هارون وهو يحكي أسطورة الملك الشلبي فارس الفرسان ، والعمَّة فطُّوم : تلك المرأة القادرة ، تتملكني الدهشة إزاءها وهي تقترب من علي عوف المزهو بقوته ، ثم وهي تمد يدها اليمنى بين فخذيه وتمسك " مكان القدرة فيه " ، ولا تتركه إلاَّ عندما يسقط جثةً هامدةً ، وتلتفت للرجال الذين لم يتمكنوا منه من قبل قائلة لهم بصوت مبحوح : " اضربوه " . أو عندما قالت لشوق بثقة : " يروح لحاله .. مش كده ؟ " .. وكانت تقصد زوجها الحاج فرج الذي عاد مساءاً ، فقدمت له الفطير المسموم فسقط وهي تخاطبه بهدوء : " خلاص يا فرج .. دلوقت ترتاح " ، ثم وهي تندبه مخاطبةً إيَّاه : " ح أعمل لك أحسن خارجة .. وح أجيب صييت من مصر " .

حكاية شوق إبداع أصيل ، غني بالشخوص والأحداث ، لقد كتبت بشكل جديد تتداخل فيه الأزمنة والأحداث بشكل قد يبدو عشوائياً ، لكنه غير ذلك . الحوار ريفي " قح " لا يمن أن يخرج إلاَّ من أفواه هؤلاء الناس ، فمنح العمل مذاقه ونكهته الخاصة ، هذا العمل امتداد لأعمال الشيخ السابقة ، فقارئ الشيخ لابد وأنه يعرف هؤلاء الشخوص وهذه الأماكن ، ولأن المدن تتشابه ، فلقد قالوا قديماً إذا أردت أن تعرف شعباً فاذهب أولاً إلي قراه ، ولقد فعل أحمد الشيخ هذا باقتدار لأنه في الأصل واحدٌ من هناك .

---

* حكاية شوق من (خماسية كفر عسكر) ـ رواية أحمد الشيخ ـ روايات الهلال ـ العدد513 .

- أحمد الشيخ حاصل علي جائزة الدولة التشجيعية 1985 م ، وينتمي لجيل الستينيات وله أعمال أخرى كثيرة منها :

النبش في الدماغ ـ مدينة الباب ـ دائرة الانحناء ـ الحنان الصيفي ـ كشف المستور.

لن أقلع عن هذه العادة*

" ألف مدينة وألف قرية وألف نجع وألف كفر وألف عزبة ، وحواري وأزقة وميادين كثيرة دست فوقها وغصت في عمقها " .. هكذا يحكي لنا الرجل صاحب بطاقة البيانات الشخصية جداً في قصة " لن أقلع عن هذه العادة " ، آخر قصة في مجموعة " د . محمد عبد الحليم غنيم " الموسومة بعنوان القصة . وبرغم أن المجموعة تضم عدداً كبيراً من القصص إلاَّ أنها نجحت بقصدية في أن تجمع بين التجانس والتطور في آن ، وأن ترسم في ذات الوقت ملامح مسيرة الكاتب الإبداعية الممتدة لسنوات عدةً ، نشر فيها قصصه ودراساته هنا في مصر أو في دول الخليج التي عمل بها فترة من الوقت . لهذا فإن حسنة التأخير في إصدار عمله الأول هذا جاءت علي صورة عمل يكاد يكون متكاملاً ويخلو تقريباً من نقائص البدايات . ولعل ملمح القرية بعوالمها الأثيرة من أجمل ملامح المجموعة ، حيث تتبدى - في مزيج واع ومتمرس - عادات وتقاليد التباعد والتواصل ، صور الفقر والمرض والجهل ، خرافة وأساطير قرى فلاَّحي الشرقية الأقحاح المتوارثة عبر آلاف الأعوام ، كما في قصص : " حكاية موت أبي " و " ملكة " و " شجرة الشيخ علي " وغيرها . وقصص المدينة القليلة لديه هي في الواقع قصص الفلاَّح المصدوم بوحشية المدن وشوارعها المكتظة وأناسها الأغراب . أما القصص التي تتماس بين خطي الفقر والغني ، والتي برع فيها كثيرون من الكتَّاب الروَّاد مروراً بجيل الستينات وحتى الآن ، فإنها في المجموعة تبتعد عن المعاد والمكرر ، وتجتاز تخوم إبداعية جديدة ، وتخلق عوالمها الخاصة ، كما في قصتي : " بنت وولد " و " الملعونة " . وقصص " غنيم " تنطلق في معظمها من أرض واقعية ، تبتعد عن التقريرية والمباشرة والاقتصاد في الوصف والتركيز علي الحدث الواحد ، مع المراوغة واللجوء للرمز أحياناً ، ومحاولة استخدام تقنيات الحداثة كما في قصتي : الطائر الذهبي و لن أقلع عن هذه العادة ، وتتراوح عناوين القصص الدالة بين الكلمة الواحدة كما في " رحلة " والجملة الطويلة كما في قصة " من مذكرات رجل افترش الطريق ليلة الأحد " .

مرحباً بهذه المجموعة الأولى ، وأهمس في أذن صاحبها د . محمد غنيم :

" أبداً .. لا تقلع عن هذه العادة .. فنحن في انتظار أعمال أخرى " .

---

* لن أقلع عن هذه العادة - قصص د. محمد غنيم - علي نفقة المؤلف 2002م .

وقائع موت حمدي سرحان

هل تعرفون حمدي سرحان .. وكيف مات ؟ .
حمدي سرحان لمن لا يعرفه هو القاص الذي كتب القصة والشاعر الذي كتب الشعر والناقد الذي كتب النقد والمثقف المستنير صاحب الثقافة الرفيعة .. وهو طالب السبعينات الثوري الذي تظاهر مع أقرانه من أجل الحرب وتحرير الأرض ، وهو الذي اعتقل آنئذ في زنزانة واحدة مع فؤاد نجم ، وهو الذي يحفظ بذاكرة من حديد أشعار نجم ومظفر النواب وزكي عمر ونجيب سرور ، وهو الذي عمل لسنوات في الخليج ونشر بها بعض أعماله قبل أن يعود لتولّي إدارة الشباب والرياضة في فاقوس ، لتتحول بقيادته في أشهر قلائل لشعلة من العمل والنشاط ، كان آخرها تنظيمه لاحتفاليات تضامن مع الانتفاضة الفلسطينية تستمر شهراً علي مستوى مراكز الشباب تضم كل الأدباء والمثقفين والسياسيين مع جمع التبرعات للهلال الأحمر من أجل الفلسطينيين ، وفي أول احتفالية مساء الأربعاء 8 - 5 - 2002 م لم يكف عن الحركة وهو يستقبل مدعويه بصالة مسرح الساحة الشعبية الذي تحول لعرس قومي حقيقي من أجل فلسطين . وعندما صعد علي خشبة المسرح قال كلاماً كثيراً أذكر منه أنه وجه الشكر للانتفاضة التي أعادت العرب لزمن النضال بعد أن تاهت أقدامهم في دهاليز السلام . وبدأت الأمسية الشعرية التي كان مقرراً أن يختتمها هو بقصيدة ، لكنه فجأة يطلب تقديمه بعد أول شاعر ، ويقدمه مقدم الأمسية فيصعد ، وبكل الحيوية يلقى قصيدة لمظفر النواب ، وقبل أن يستكملها يسقط علي خشبة المسرح كبطال عظيم من أبطال التراجيديات العظيمة ، فيهب الجميع لحمله علي عجل للمستشفى القريب ، ليخرج علينا بعد قليل صديقنا شاعر العامية الدكتور أيمن جميل ليقول لنا بصوت يشرق بالدمع : البقاء لله وحده .. لقد مات حمدي سرحان ..
الآن هل عرفتم كيف مات حمدي سرحان ؟ ..
رحمه الله رحمة واسعة .

المساء - السبت 8 - 6 - 2002 م صفحة قضايا أدبية .

رياح " صبري قنديل "
الانشطارية*

عرفت صبري قنديل منذ أعوام عديدة عندما أسس رابطة الشعراء والأدباء التي كانت بحق آنذاك واحدةً من عدد قليل من التجمعات الأدبية ذات النشاط كما شاركت في مسابقاتها الأدبية التي كان يشجعها أدباء كثيرون منهم الراحل " محسن الخياط " والراحل " فوزي الميلادي " وغيرهما . وفي الرابطة التقيت بأدباء مثل طاهر البرنبالي و شحاتة عزيز ومحمد الدسوقي وغيرهم . و قنديل شاعر يكتب بالعامية والفصحى ، ويكتب قصائد النثر والقصة القصيرة . ولكنني عرفته حقيقة كناقد متميز دءوب علي صفحات الصحف والمجلات والدوريات الأدبية في مصر والعالم العربي . كما عرفته مشاركاً إيجابياً وواعياً في الكثير من المؤتمرات والندوات والأمسيات الأدبية في كافة أرجاء مصر . وفي كتابه الأخير " رياح الانشطار - قضايا ومعارك أدبية ونقدية " يجمع قنديل مجموعة من المقالات والدراسات التي نشر معظمها من قبل ، ويبوبها في أربعة فصول . الفصل الأول " قضايا أدبية في النقد الأدبي " يتناول فيها هوية الإبداع واتجاه الوعي وجمر الكتابة والتلقي والأجناس الأدبية وغيرها من القضايا . والفصل الثاني " مقالات نقدية حول قضايا ثقافية عامة " كالحقوق الفكرية ومستقبل الثقافة العربية ومقالات عن نجيب محفوظ وجمال حمدان وزكي نجيب محمود وغيرها . والفصل الثالث يتضمن وجهات نظر مغايرة لتوجهات وزارة الثقافة حول المشروع الثقافي وقضايا الآثار . وفي الفصل الأخير يتناول في " معارك نقدية وثقافية كثير من القضايا كأدعياء التنوير والشعر والرصاص ومعركة الوليمة وزوابع قصيدة النثر وتهاويم الحداثة والإبداع بين الحرية والوصايات الأيديولوجية . والكتاب الذي يتجاوز بعدد صفحاته الثلاثمائة صفحة يتناول عدداً كبيراً من القضايا ، ولأن هذه القضايا كتبها قنديل من قبل علي صورة المقال الذي يناسب الجريدة فإنها لا تشفي غليل قارئ الكتاب . فعندما يتناول " البعد الإبداعي ورؤية حول أدب الحرب " فإنه يتمثل بعض النماذج العالمية من أعمال لتولستوي وإسماعيل قدري وبعض النماذج العربية لصلاح عبد الصبور والغيطاني وغيرهما ، ولأن الموضوع كبير ومتعدد الجوانب لأمة خاضت الحرب ومازالت لسنوات طويلة ، فإن قنديل يضعنا في بؤرة الموضوع مكتفياً بتحفيزنا للبحث والتنقيب . كما كان صوت بعض العناوين عالياً كعنوان الفصل الثالث " من معارك وزير الثقافة " ، لأن سياسات وزارة تعني بالهم الثقافي علي مستوى وطن بحجم مصر لابد وأن يكون لها مؤيدون ومعارضون ، والسجال الذي يدور علي صفحات الصحف لا يصل في معظم الأحوال لحد المعارك كمعركة الوليمة أو الروايات الثلاث أو غيرهما . لكن الجهد المبذول في هذا الكتاب جهد سنوات عدَّة ، والقضايا التي يتناولها قضايا هامة وملحَّة ، كما أنه يسلط الضوء عليها بقلمه

الواعي ، بعـد أن يجمعها ويفجرها كي تنشطر وتحملها رياح الوطن لكافة الأرجـــاء .

*** رياح الانشطار ـ كتاب صبري قنديل ـ مطبعة الأمل بالإسكندرية 2002م.**
(صبري قنديل له أعمال أدبية تتنوع بين الشعر والقصة والنقد ، وصـــدر له هـذا العـام 2003م : " وقفـات وتـأملات ـ رؤى ومناقشـات حـول قضـايا إسـلامية معاصرة ") .

نـوبل للقتـل

فـي بيانــه لإدانــة " شــارون " ، وممارســات القتـل اليوميــة فــي حـق الشـعب الفلسطيني ، وقَّع الكاتب العالمي " ماركيز " في نهايته قائلاً : " بشكل منفرد ، إذن ، أنا أوقع علي هذا البيان باسمي جابرييل جارسيا ماركيز " . والبيان يفضح بشكل واع السياسات الصهيونية وأحلامها التوسعية التي تعتمد علي نظرية أن " اليهود شعب بلا أرض ، وفلسطين أرض بلا شعب " ،
، وكيف باعت الآلة الإعلامية الصهيونية هذا الوهم للبلهاء في الغرب ، فصمتوا تحت وطأة عقدة الذنب تجاه اليهود ، أيضاً ، بوهم المحرقة النازية . وهكذا استمرت حرب الإبادة منذ خمسين عاماً ضد هذا الشعب الأعزل . وتحدث الرجل بدهشة عما شاهده إبان إقامته في فرنسا عندما فرض العسكر حكمهم في بولندا ، وكيف هبَّت أوروبا كلها تدين وتصرخ وتستنكر ما حدث ، وكيف شارك هو معهم في هذا الاحتجاج من خلال المنتديات أو البيانات التي وقع عليها ، في الوقت الذي صمت فيه هذا الغرب إزاء مذابح صبرا وشاتيلا في لبنان ، ومازال صامتاً إزاء مذابح شارون اليومية في الأرض المحتلة ، ووقع الرجل بيانه كما قال : " بالرغم من إنكار القوة العظمي أو المثقفين الجبناء أو وسائل الإعلام أو حتى بعض العرب !! " ، وأعلن الرجل بشجاعة نادرة خجله من ارتباط اسمه بجائزة نوبل لأن سفاحاً سابقاً اسمه " مناحم بيجن " حصل عليها باسم السلام ، وطالما الأمر كذلك ، فإنه قد رشح " شارون " لجائزة نوبل للقتل .
ماركيز . . تحيةً واحتراماً .

{ مقتطفات من بيان " جارثيا ماركيز " (فبراير 2002م)}

إنه لمن عجائب الدنيا حقاً أن ينال شخص، كمناحم بيجين جائزة نوبل في السلام، تكريما لسياسته الإجرامية التي تطورت في الواقع كثيرا خلال السنوات الماضية على يد مجموعة من أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة، إلا أن الموضوعية تفرض أن نعترف بأن الذي تفوق على الجميع هو الطالب المجد إرييل شارون .

وعلى أية حال، فإن فوز مناحيم بيجين بجائزة نوبل للسلام يظل من عجائب الدنيا حقا، ولا يخفف من دهشتي القول أن الدنيا مليئة بالطرائف، أن هناك ما هو أغرب.

المهم أن هذا ما حدث، ولا طريقة الآن لتبديله ، فاز مناحيم بيجين بجائزة نوبل للسلام لسنة 1978، مناصفة مع أنور السادات، رئيس جمهورية مصر في حينه.

جاء ذلك كنوع من المكافأة على إتفاقية براقة أرست قواعد السلام من طرف واحد هو العربي .

الرجلان إقتسما الجائزة ، لكن المصير اختلف من أحدهما إلى الآخر، الاتفاقية ترتب عليها في حالة أنور السادات انفجار بركان الغضب داخل جميع الدول العربية، فضلا عن أنه ـ ذات صباح من أكتوبر 1981 ـ دفع حياته ثمنا لها. أما بالنسبة لبيجين ، فلقد كانت هذه الإتفاقية نفسها بمثابة الضوء الأخضر، ليستمر بوسائل مبتكرة في تحقيق المشروع الصهيوني الذي لا يزال حتى هذه اللحظة يمضي قدما. أعطته الجائزة أول الأمر الغطاء اللازم حتى يذبح ـ بسلام ـ ألفين من اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات داخل بيروت سنة 1982.

المؤكد أن اتفاقيات كامب ديفيد، بالإضافة إلى جائزة نوبل للسلام، تجاوزت شخص مناحيم بيجين، لتشمل أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة، خاصة ناظرها الجديد إرييل شارون. جائزة نوبل في السلام فتحت الطريق على مصراعية لقطع خطوات متزايدة السرعة نحو إبادة الشعب الفلسطيني ، كما أدت الى بناء آلاف المستوطنات على الأرض الفلسطينية المغتصبة .

لن ننسى ـ نحن الذين نقاوم فقدان الذاكرة ـ الوعاء الفكري لممارسات النازية. إرتكز هتلر على نظرية المجال الحيوي لتحقيق مشروعه التوسعي باحتلال أرض الغير. وقد قال بيجين صراحة أن الأراضي المحتلة في 1967 هي ممتلكات يهودية ليس من حق أحد أن يطالب باستعادتها. الركيزة الثانية هي ما سماه الحل النهائي لمشلكة اليهود .

معسكرات الاعتقال سيئة السمعة كانت في نظره المخرج المناسب. إبادة جماعية، يولغ في سرد وقائعها لتبرير إبادة جماعية أخرى. أما حكاية الملايين الستة من اليهود ضحايا هتلر فلقد إنضمت الى ترسانة الخرافات اليهودية، تمهيدا لإعادة إرتكابها من جديد تحت غطاء جائزة نوبل للسلام .

إستندت نظرية المجال الحيوي الصهيونية إلى أن اليهود شعب بلا أرض ، وأن فلسطين أرض بلا شعب . هكذا قامت الدولة " الاسرائيلية"، غير المشروعة في 1948. فلما تبين أن هناك شعبا ، وأن في فلسطين شعبا يسكن في أرضه، كان من الضروري حتى لا تكون النظرية مخطئة إبادة الشعب الفلسطيني ، وهو ما يتم بصورة منهجية منذ خمسين عاما، لكن جائزة نوبل للسلام ، بالإضافة الى اتفاقية كامب ديفيد، اتخذت شكل الإذن الدولي بالقتل الذي لا يجرمه أحد. وقد تمكنت أجهزة الإعلام التي يسيطر عليها اليهود من إقناع البلهاء في الغرب بهذه الأكاذيب ، مستثمرة عقدة الذنب عند القتلة . فباركوا المزيد من المذابح ، لولا أن العالم استيقظ فجأة على أن هناك شيئا اسمه الشعب الفلسطيني. ولم يلفت الانتباه إليه تمثيله الدبلوماسي أو مشاركته في المحافل الدولية. ما لفت الانتباه الى وجوده هو هذا الأنين الصادر عن شعب يتعرض للإبادة .

تهامس الجميع على استحياء، الظاهر أن هنا شعبا فلسطينيا، وأنه لسبب ما توارى عن الأعين طوال هذه السنوات ، الشعب الفلسطيني بالفعل ظل مختبئا في منطقة اسمها تجاهل الآخرين . اسمها، ليل الضمير الشرعي. حسنا. ما العمل الأن ؟ الحل عثرت عليه مجموعة أنجب تلاميذ المدرسة الصهيونية الحديثة لتصبح فلسطين تمشيا مع النظرية، أرضا بلا شعب ، وعلى الذين يتكاثرون كالأرانب ليقاوموا الفناء أن يبادوا بسلام .

وقد تصادف أن كنت في باريس، عندما ارتكب شارون - بغطاء - من جائزة نوبل في السلام - مجازر صبرا وشاتيلا ، قتل أثناء الغزو ثلاثين ألف فلسطيني أو لبناني . كما تصادف أن كنت في باريس، عندما فرض الجنرال جاروزيلسكي سلطة العسكر ضد إرادة الاغلبية من شعب بولندا. أصابت الأزمة البولندية أوروبا بصدمة جعلتها تترنح من الغضب. أنا شخصيا قمت بالتوقيع على عدد كبير من البيانات التي تندد باغتيال الحرية في بولندا . كذلك فلقد شاركت في الاحتفالية التي أقيمت تكريما لبطولة الشعب البولندي، بمسرح (بير ادي بار) تحت رعاية وزارة الثقافة الفرنسية. وعلى العكس من ذلك تماما ساد نوع من الصمت الرهيب عندما اجتاحت القوات الشار ونية لبنان. علما بأن أعداد القتلى أو المشردين هناك لا تسمح بآي مقارنه مع ما حدث في بولندا . ظهرت في الحال النظرية السوفيتية التي تدعو الى الاخوة بين القوى العظمى على حساب أي شعب أو أي مذابح .

هناك بلا شك أصوات كثيرة على امتداد العالم تريد ان تعرب عن احتجاجها ضد هذه المجازر المستمرة حتى الآن . لولا الخوف من اتهامها بمعاداة السامية أو إعاقة الوفاق الدولي.

أنا لا إعرف هل هؤلاء يدركون أنهم هكذا يبيعون ارواحهم في مواجهة ابتزاز رخيص لا يجب التصدى له بغير الاحتقار. لا أحد عانى في الحقيقة كالشعب الفلسطيني. فإلى متى نظل بلا ألسنة، ولم أجد من يومها من يدعوني الى أي احتفال ببطولة الشعب الفلسطيني في اي مسرح تحت رعاية أي وزارة .

هذا ما يدفعني الآن إلى التوقيع على هذا البيان بشكل منفرد . أنا أعلن عن اشمئزازي من المجازر التي ترتكبها يوميا المدرسة الصهيونية الحديثة. ولا يهمني رأي محترفي الشيوعية أو محترفي معاداة الشيوعية. أنا أطالب بترشيح ارييل شارون لجائزة نول في القتل. سامحوني إذا قلت أيضا إنني أخجل من ارتباط اسمي بجائزة نوبل. أنا أعلن عن إعجابي غير المحدود ببطولة الشعب الفلسطيني الذي يقاوم الإبادة ، على الرغم من إنكار القوة العظمى أو المثقفين الجبناء أو وسائل الإعلام أو حتى بعض العرب لوجوده .

بشكل منفرد، إذن، أنا أوقع على هذا البيان باسمي، جابرييل جارسيا ماركيز.

ثروت أباظة

رغم أن أسرته ترجع أصولها إلي جبال شمال أسيا ، ورغم أنه ـ شخصياً ـ بالمفهوم الطبقي ينتمي للشريحة الإقطاعية الأرستقراطية .. إلاَّ أنه ظلَّ طوال حياته (1927 ـ 2002) يحمل في داخله روح الفلاَّح المصري الشرقاوي ابن قرية " غـــــزالة " .
كان هذا ماثلاً في إبداعاته في الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمسلسل الإذاعي والتليفزيوني . وماثلاً في أراءه الجريئة التي ألَّبت عليه الكثير من المثقفين والسياسيين . ماثلاً في رئاسته لاتحاد الكتَّاب (1984 ـ 1997) . ماثلاً في كثير من المواقع التي عمل بها (مجلس الشورى والمجلس الأعلى للثقافة ونادي القصة والمجالس القومية وغيرها) . ماثلاً في مقالاته ودراساته بالصحف والمجلاَّت ..
ما زلت أتذكر شغفي ولهفتي علي سماع حلقات المسلسل الإذاعي " ابن عمَّار " التي تعتبر أولى رواياته التي كتبها عام 1954 عن تاريخ الأندلس . ورائعته " شيء من الخوف " التي صارت واحدةً من علامات السينما المصرية ، والهتاف الشهير " جواز عتريس من فؤاده باطل " ، ولم أكن متفقاً معه في المبالغة في الظلم ، أو عندما حاول ـ فيما بعد ـ الدمج بين " عتريس وعبد الناصر " . ولا أذيع سراً عندما أقول أن أمانة مؤتمر الشرقية الأدبي (موطنه) قد عرضت عليه رئاسة المؤتمر (2001م) ، فأبدى اعتذاره ـ رغم سعادته ـ بسبب مرضه ، كما تم تكريم اسمه ضمن فعاليات المؤتمـــر ..
ورحل الفلاَّح الأرستقراطي كما يرحل كل الناس ، وبقيت أعماله : لؤلؤ وأصداف وطارق من السماء والغفران وغيرها في سجل الأدب العربي .
رحم الله ثروت أباظة .

السيرة الذاتية للكاتب محمد عبد الله الهادي

محمد عبد الله الهادي
Mohamed Abd Alla Elhady

قاص وروائي ـ عضو اتحاد الكتَّاب المصري
الهاتف داخل مصر 055 3977692
بريد إلكتروني mosaleeh@hotmail.com

كتــب للمــؤلف:

1 ـ عيون الدهشة والحيرة ـ قصص ـ إشراقات أدبية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ 1989 م .
2ـ أنشودة الأيام الآتية ـ رواية ـ هيئة الكتاب (طبعة أولى 1990 م) ، مكتبة الأسرة (طبعة ثانية 1996 م) .
3ـ الأخوان ـ مسرحية فصل واحد ـ كتاب مشترك ـ إقليم شرق الدلتا الثقافي بمصر ـ 1992 م .
4ـ الحكاية وما فيها ـ قصص ـ أصوات أدبية ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ 1995 م .
5ـ الأحلام تتداعى وضباب الفجر ـ روايتان قصيرتان ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ 1997
6 ـ حلقة ذكر ـ قصص ـ سلسلة رؤى شرقية ـ ثقافة الشرقية 2002 م .
7 ـ عصا أبنوس ذات مقبض ذهبي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة (كتاب الاتحاد) 2003 م .

قصص للمؤلف تم إعدادها للمسرح أو الإذاعة بواسطة آخرين:

1ـ ثقوب في جدار من طين (مسرحية بنفس الاسم) . . فرقة بلبيس المسرحية .
2ـ الأحلام تتداعى (مسرحية بعنوان : عـُود) . . فرقة المنشأة المسرحية بسوهاج
3ـ مسرحية الأخوان (تم إعدادها لسباعية إذاعية) . . إذاعة القناة .

عديد من المقالات الأدبية والنقدية في الصحف والمجلات والدوريات كإبداع والكويت والرافد والراية والمساء والجمهورية وغيرها .

بعض الجوائز التي حصل عليها:

1- جائزة نادي القصة بالقاهرة 1984 م .
2 - جائزة صحيفة المساء في القصة القصيرة 1986 م .
3 - جائزة نادي القصة بالإسكندرية 1986 م .
4 - جائزة د . سعاد الصباح في الرواية 1989 م .
5 - جائزة نادي جازان الأدبي في القصة القصيرة " السعودية " 1990 م .
6 - جائزة إحسان عبد القدوس في القصة القصيرة 1992 م .
7 - جائزة المجلس الأعلى للثقافة " يوسف السباعي للنقد القصصي " 1995 م .
8 - جائزة المجلس الأعلى للشباب والرياضة في القصة القصيرة 1996 م .
9 - جائزة الإبداع الأدبي والفني في القصة القصيرة من القوات المسلحة بمناسبة اليوبيل الفضي لنصر أكتوبر 1998 م .
10 - جائزة قصة الطفل " مجلة النصر " للقوات المسلحة 2000 م .
11 - جائزة موقع نادي حائل الأدبي الإلكتروني في القصة القصيرة عام 2002 م و 2003 م ، وموقع لها أون لاين الإلكتروني في القصة القصيرة عام 2003 م .
12 - جائزة إذاعة صوت العرب في القصة القصيرة (من وحي أكتوبر) 2003 م.